

قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن
مما علمت رشدا

([illegible] كريم)

المهندس

أحمد زين العابدين السماك

رئيس المركز الإسلامي لسيدي علي السماك بالاسكندرية
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

رحلة من أجل العلم

موسى والخضر

المهندس

أحمد زين العابدين السماك

رئيس المركز الاسلامى لسيدى على السماك بالاسكندرية
وعضو المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

الطبعة الثانية

«قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن
مما علمت رشدا»

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ أَوزعني أن أشكُرَ نعمَتكَ الَّتي أنعَمت عَلَيَّ وعَلَى وَالديَّ وأن أعمَلَ صَالحاً ترضَاه وَأدخلني برحمَتِكَ فِي عِبَادكَ الصَالِحِين .

إهداء

لله الحمد على كل إلهام وإنعام ، فقد منَّ الله عليَّ بوالدين صالحين وأخذا بيدى لأكون من ضمن السالكين فى طريق حبه وفى ساحة التودد إليه .

وفى الطريق وفى الساحة التقيت بأصحاب القلوب الطيبة العامرة بذكر الله وعشت فى رحاب مسجد سيدى على السماك لكى أنال شرف الدعوة لله وفى نفس الساحة المباركة ألقيت كلماتى بالمركز الاسلامى لمريدى سيدى على السماك من خلال الأمسيات الدينية ولقد رأى إخوانى ضرورة تلخيص هذه المحاضرات وتقديمها فى كتاب . رحلة من أجل العلم .

وأسجل شكرى لله ولإخوانى فى طريق الله ، وأخيرا أهدى كتابى هذا لكل قلب نابض بحب الله وليستقر ضمن الكتب الصوفية فى المكتبة الإسلامية .

مهندس / أحمد زين العابدين السماك

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعث رحمة للعالمين ، وعلى أصحابه الذين كانوا أعلام الهدى يهتدى بهديهم ويقتدى بهم .

أمــا بعــد

فلقد طلب إلىّ أن أقرأ هذا الكتيب «رحلة من أجل العلم» للأستاذ المهندس الملهم أحمد زين العابدين ، ولا أخفى أننى بادئ أمرى أشفقت على نفسى من هذا التكليف ، فإننى وإن كنت قد ألمت فى دراستى الأزهرية بعلوم الشريعة فإننى لم أنل شرف علم الحقيقة .. لأنه فضل الله يؤتيه من يشاء . ونظراً لأننى أحب الصالحين ولا تعدو عيناىَ عنهم فإننى قاومت التردد واستعنت بالله وسألته الهداية والتوفيق ... ولقد قال لى الأستاذ الفاضل المهندس أحمد زين العابدين السماك عندما عهد إلىّ بهذا الشرف : إن البحث سيستهويك ، وإنك بمجرد أن تبدأ فيه ستجد نفسك مستغرقاً ولن تتركه حتى تنهى قراءته .. وأشهد

الله أن ماتوقعه سيادته كان صحيحاً وما أن انتهيت من قراءته حتى رددت قول الرسول صلى الله عليه وسلم «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما» رواه البخارى .

نعم فلقد أوتى سيدنا الخضر .. علماً من لدن الله عز وجل .. أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده الله .. لحكمة أرادها ، ولخير أراد تحقيقه .. ومن ثم ، لم يكن لسيدنا موسى صبر على هذا العبد الصالح ... ولا على تصرفاته لأنها تصرفات رأى أنها تصطدم بمنطق العقل وبالأحكام الظاهرة ولابد من إدراك ماوراءها ومعرفة أسرارها ومرادها ... لذلك خشى العبد الصالح الذى أوتى هذا العلم والذى خفى أول الأمر على سيدنا موسى .. أقول .. خشى ألا يصبر سيدنا موسى على صحبته .. فقال له .. (إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) .. فسيدنا موسى نبى صاحب شريعة .. يحكم بالظاهر . أما سيدنا الخضر .. فعالم علمه الله من لدنه .. علماً بباطن الأمور وأوقفه على بعض الأسرار الخفية .. التى تبيح له .. مخالفة الظاهر .

والعلم بباطن الأمور مردّه إلى قوة النفس وصفائها .. فهذا العلم الربانى ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى «العلم اللدنى» يورثه الله من أخلص العبودية له ولا ينال بالكسب والمشقة فى الاطلاع .. وإنما هو ـ هبة الرحمن .. لمن خصّه الله ـ بالقرب والولاية .. والكرامة .

وفى هذا البحث بيان وتفصيل للأحداث العجيبة التى رآها سيدنا موسى ولم يطق عليها صبراً .. وفيه بيان ـ بما ينبغى أن يكون عليه المتعلم بالنسبة إلى أستاذه ، وكيف يسافر له ويتأدب معه .

«حقاً انها الرحلة من أجل العلم»

أقول هذا وأنا على يقين .. من أن الكاتب «حفظه الله» قد بذل الوسع والجهد للوصول إلى الحق .. فهو بحمد الله .. صافى الذهن .. دقيق الفهم .. مشرق النفس .. فإن أصاب ـ وما أظنه إلا كذلك ـ فله الأجر المضاعف .. وإلا كان له الأجر على كل حال .. أحسن الله مثوبته وأجزل مكافأته ..

فالحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه .

بقلم

مصطفى عيد

مدير عام منطقة الإسكندرية

الأزهرية

موسى والخضر

هو كتاب ولكنه ليس كتاباً .

إن مؤلفه هو المهندس أحمد زين العابدين السماك ، وهو لم يجلس ليكتبه أساساً ولكنه ألقاه كمحاضرات على المحبين فى مسجد سيدى على السماك . كما ألقى البعض الآخر فى المركز الاسلامى التابع للمسجد .. من هنا كانت التلقائية والعفوية هما طابع الكتاب ، ولكنها تلقائية محكومة بحكمة بالغة ، وتنطوى على اشراقات رجل متصل القلب بالله .

وقصة موسى والخضر هى قصة بالغة الأهمية عند الصوفية لأنها سندهم فى تقديم أهل القلوب على أهل العقول كما أنها قصة مهمة لأنها تكشف الستار عن نوع من العلم لا يتعلق بالأسباب ولا بالتدريس ولا بالقلم .

علم يسميه العارفون بالله «العلم اللدنى» أى العلم المأخوذ من لدن الله تبارك وتعالى .. وهذا هو علم الباطن المبنى على الحقيقة ، وهو على خلاف علم الظاهر المبنى على الواقع المرئى .

وعلم الظاهر يعتمد على العقل والحواس ، أما علم الباطن فيعتمد على القلب والبصيرة .

قلت أقرأ صفحات فى الكتاب فإن أعجبنى قرأته فيما بعد ، وإن لم يعجبنى تركته ، وفوجئت بنفسى أقرأ الكتاب دفعة واحدة فى نفس مجلسى ، ووجدت له فى قلبى حلاوة .

إن فى الكتاب جواهر كثيرة من جواهر المعانى الراقية ، وفيه حديث جميل عن العلم وآداب طلبه وكيفية السلوك اللائق بالطلبة فى حضرة الأساتذة .

ويرينا الكتاب أنه لا تعارض بين علم الظاهر وعلم الباطن إلا فى الشكل الخارجى فقط ، فنحن مع سيدنا موسى فيما يدركه بذكاء عقله ، ومع سيدنا الخضر فيما يدركه بحكمة قلبه .

وأجمل مافى الكتاب أنه يبحر فى المياه العميقة للصوفية دون أن يغيب عنه أفق الواقع ودون أن يفقد الصلة بالأرض التى تعتبر الثورة فيها من أجل الحق واجباً إنسانياً يؤدى إلى نصر الفضيلة .

يرينا الكتاب أيضاً كيف كانت رحلة موسى مع العبد الربانى هى حياة فى ثلاث جنات من جنات المعانى .. جنة الإرادة .. وجنة التبديل .. وجنة الربوبية .. إن هناك ثلاثة مستويات عبرها موسى هى «فأردت أن .. «فأردنا» .. «فأراد ربك» ..

إن البداية تبدأ بإرادة الإنسان ثم تنتهى بذوبان مشيئة الإنسان فى إرادة الله .. جزى الله مؤلف الكتاب خيراً على كتابه الذى يثرى المكتبة الصوفية العربية

أحمد بهجت

منشور بجريده الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٦/٢ فى باب صندوق الدنيا

السيد المهندس / **أحمد زين العابدين السماك**

تحية مباركة ، وحباً صادقاً ، وتقديراً مدركاً واعياً وبعد .
فلقد اصطحبتك واصطحبتنى ، ورافقتك ورافقتنى .. بل لقد أخذت بيدى بين يديك الحانيتين الوادعتين ، وقُدتنى إلى سفينة العلم فى رحلتك بحثاً وبثاً للعلم وتسللت بى فى وداعة وهدوء ورفق إلى تلك السفينة الخالدة حيث التقى نبى كريم بعبد طاهر تخرج فى مقام العبودية وانطلقا بحثاً عن المعرفة والحقيقة ـ المعرفة بالله ـ من خلال علم الحقيقة من أجل امتلاك الحكمة فكراً واجتهاداً وبصيرة والهاماً .

لقد خضت معك وبرفقتك ومن ورائك بحوراً لم أتعودها ، ذات أمواج عاتية بقاعها وشطئانها غير النهائية ، ولكن معك وبرفقتك ومن ورائك هدأت الأمواج وتألق القاع وأضاءت الشطئان ومضت السفينة تتهادى على بحيرة هادئة رقراقة .. بحيرة الإيمان والصدق والحب ..

كنت فى رحلتى معك .. تعلمٌ ، وتحارب ، وتقاتل .. كنت تعلمٌ الحب و الكرم والرحمة والصبر ، وترفع رايات العمل والكد والكفاح ، وكنت أيضاً تعصف بقلاع الظلم والتسلط والاستعلاء ، كل ذلك والسفينة تمضى وادعة آمنة إلى شاطىء المعرفة يانع الخضرة متألق الأنوار ، عليل النسمات وارف الظلال ..

لا أملك إلا حبى وتقديرى أهديك كل مالدى منهما .. وشكراً .

دكتور / **حمزه محمد البسيونى**

١٩٨٩/٦/٢٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن من أبرز سمات العصر الحديث ذلك الزحام الذى يشمل الناس والعمارات والسيارات ، وأيضاً زحام الموضوعات التى تجذب المفكرين والعلماء والأدباء .

وبالرغم من وفرة الموضوعات وتعددها وتنوعها ، إلا أننى وجدت نفسى أسيراً لذلك اللقاء الروحى العظيم ، بين سيدنا موسى والخضر عليهما السلام فى القرآن الكريم . ولقد سجلت خواطرى فى هذه الكتابة المتواضعة بغرض شد القارىء إلى تلك الساحة الخفية التى تعيش عالم الغيب فى جو من العلم والحقيقة .

إنها دعوة للعودة إلى روح الدين والتعرف على الله من خلال الحق واليقين .

ونسأل الله التوفيق والسداد

المؤلف

أحمد زين العابدين السماك

لمحة عن موسى عليه السلام
من أجل
التعرف على مقام الخضر
عليه السلام كمعلم لنبي

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد حظى سيدنا موسى عليه السلام بذكر اسمه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم فى مائة وست وثلاثين آية ، وهذا راجع إلى .. أهمية رسالته .. ومدى قربه وارتباطه بالله سبحانه وتعالى .

وأوضح مايشير إلى منزلته عند الله قول الله سبحانه وتعالى :

«وكلم الله موسى تكليما» ....

فلقد كانت رعاية الله لسيدنا موسى منذ ولادته .. حيث ولد فى أرض الفراعنة .. وكان فرعون يقتل كل طفل يولد ، خشية أن يتعرض لهذا الفرعون حينما يكبر .. وهذا مانصح به العرافون والمنجمون .

وحينما ولد سيدنا موسى .. احتارت أمه فى حفظه وصونه ، خوفاً من بطش فرعون ، ولكن تحدث المفارقات العجيبة حينما يتعهد هذا الفرعون بنفسه نشأة وتربية سيدنا موسى عليه السلام .. ويوضح القرآن قصة سيدنا موسى منذ طفولته فى قول الله تعالى فى سورة القصص «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين{٧} فالتقطه

آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين{٨} وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون{٩} وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين {١٠} وقالت لأخته قُصيّه فَبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون{١١} وحَرَّمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون{١٢} فرددناه إلى أمه كى تَقَرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون{١٣} ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلما وكذلك نجزى المحسنين{١٤} ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌ مَضلٌ مبين{١٥} قال رَبِّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم{١٦} قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين{١٧} فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لَغَوِىٌّ مبين{١٨} فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين{١٩} وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى

قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بكَ ليقتلوك فاخرجْ إني لك من الناصحين{٢٠} فخرج منها خائفاً يترقبُ قال ربِّ نَجّنى من القوم الظالمين{٢١} ولما توجه تلقاء مَدْيَنَ قال عسى ربى أن يهدَينى سواء السبيل{٢٢} ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمّةً من الناس يسقون ووجد من دونهمُ امرأتين تذودانِ قال ماخطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يُصدرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبير{٢٣} فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقيرُ{٢٤} فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقصّ عليه القصَصَ قال لا تخف نَجَوْتَ من القوم الظالمين{٢٥} قالت إحداهما ياأبت استْأجرهُ إن خيرَ مَنِ استأجرتَ القوى الأمين{٢٦} قال إنى أريد أن أنكحَكَ إحدى ابنتىّ هاتينِ على أن تأجُرَنى ثمانى حججٍ فإن أتممَت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشُق عليك ستَجدنى إن شاء الله من الصالحين{٢٧} قال ذلك بينى وبينك أيَّما الأجلين قَضيتُ فلا عُدوان علىَّ والله على مانقول وكيل{٢٨} .

«سورة القصص»

لقد كان لسيدنا موسى المواقف الكثيرة الحاسمة .. ومن أهمها مواقفه ضد الظلم والعدوان .. ومجابهة الملوك والحكام .. ومن أجل ذلك ينبغى أن نثبت عيوننا على موقفه من فرعون حتى يكون درساً لنا يعيش فى وجدان المؤمنين ..

هذا هو سيدنا موسى فى نشأته ، وقد تربى فى قصر فرعون وعاش فى ترف القصور ونعيمها منذ نعومة أظفاره .. وحياة القصور تختلف عن غيرها .. فهى تحفل بألوان من الترف والبذخ والتعالى على الآخرين .. ويصعب على المرء حقيقة أن ينزع نفسه من كل هذا كى يعيش مع الناس فى حياتهم ويشعر بآلامهم ، ويحس بأحاسيسهم .. فيكرس حياته للوقوف بجانب الفقراء والمساكين والضعفاء والمظلومين .. ومع ذلك فسيدنا موسى عليه السلام اعتزل حياة القصور ، وانسلخ من فرعون وحاشيته وجنوده وعاش فى دنياه الجديدة يجوع .. ويعرى .. ويعمل .. ويرعى ، ومن ورائه .. عقيدة قوية وإيمان راسخ بالله سبحانه وتعالى ، وقد أدى ذلك إلى وضوح الرؤية الدينية عنده ، والتى دفعته إلى محاربة الباطل لتحرير الإنسانية من القهر والظلم .. فالإنسان .. فى جوهر الرسالات الدينية هو ركيزة العمل الدينى .. وأصحاب الرسالات .. يعتبرون حياة النضال والدفاع عن حقوق الإنسان أشهى بكثير من حياة الترف والنعيم ، بل ورائحة عرق الأجير أطيب عندهم من رائحة الورود والزهور التى تملأ حدائق القصور .

لقد عاش سيدنا موسى الواقع الإنسانى حينما هجر القصر وابتعد عن فرعون وترك مركز السلطة وعاش تقياً .. يعبد الله .. ويحارب الباطل والظلم والعدوان .. ولم يقبل فرعون هذه المسألة بسهولة .. لاسيما أن موسى عليه السلام كان يدعو

إلى عبادة جديدة تختلف عن عبادة الفرعون التى كان الكهنة يروّجون لها ولما يفرضه الملك من معبودات .. فإذا ماتبع الناس مافرض عليهم .. يكونون قد امتثلوا للملوك والحكام وأطاعوهم الطاعة التامة .

ومن أجل ذلك يأمر الملوك بتشييد المعابد التى ترمز لدين الملوك ، ويرون أن الخروج عن دين الملك هو خروج عن الطاعة والانقياد والوطنية ، وأن كل فكر يأتى لتصحيح المفاهيم الخاطئة المفروضة ومايترتب عليها من العبادات السقيمة .. هو فكر منحرف .. أما انحياز الداعية إلى الحق الذى لا يقبله الحاكم فإنما .. هو الفساد بعينه .

ومن أجل الحق أرسل الله سيدنا موسى إلى فرعون .. كى ينبهه إلى عبادة الله الواحد ، ويدعوه إلى نبذ الظلم والعدوان ، وأن يترك الناس أحراراً ، يسعون ويرزقون من خيرات الله .. ومن أجل أن يعيش الإنسان بإنسانيته الأصيلة التى جعلت الملائكة تسجد لآدم عليه السلام ..

ويقول الله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام «اذهب إلى فِرعونَ إنه طغى» ولكن سيدنا موسى يعرف معنى اللقاء مع الفراعنة ، وخاصة أولئك الذين لا يُسألون عما يفعلون ، فلا يحكمهم دستور ولا يحترمون قانونا ، بل كل منهم حاكم طاغية يريد أن يأمر فيطاع .

وقد شرح الله سبحانه وتعالى ماتنطوى عليه نفوس هؤلاء الحكام من خلال ماكان يدور فى خلد فرعون من أنه يمتلك الأرض ، ومافيها من أنهار وجبال وأشجار ، ومن عليها من بشر ... وهذا مايدفعهم إلى الأستبداد والظلم الصارخ كما بيّنه الله فى قوله تعالى :

«ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى مُلك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ..»

وأوضح الله سبحانه وتعالى منطق وفكر هؤلاء الحكام والذى يعبّر عنه قول فرعون كما ورد فى الآية الكريمة : «أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين» ..

ورغم هذا الأستخفاف بالعقول والمنطق الملتوى ، إلا أن القوة .، والسلطان .، والجاه .، والمال .، هى التى تشكل المؤثر الحقيقى فى عقول الناس وعواطفهم ، وقد ورد هذا فى قوله تعالى :

«فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين» .

وعندما يلتقى الحاكم والمحكومون .. على عدم تقبل كل حق أنزله الله ، وعلى عدم الرغبة فى التحرر من الظلم للوصول إلى العدل .. فإن النتيجة تكون كما جاء فى قول الله سبحانه وتعالى :

«فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين» .

دار ذلك كله فى خلد سيدنا موسى حينما تلقى الأمر بالذهاب إلى فرعون ، فرجع عليه السلام إلى ربه ... يطلب منه القدرة والتوفيق والسداد فى لقائه بفرعون ومجابهة جبروته .. وقدم مطالبه ودعواته لله سبحانه وتعالى كما ورد فى الآية الكريمة :

«قال رب اشرح لى صدرى{٢٥} ويَسّرْ لى أمرى واحْلُلْ عقدةً من لسانى يفقهوا قولى ، واجعلى لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشْدُدْ به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً»{٣٥} .

«سورة طه»

فلما انتهى سيدنا موسى من رجائه ودعائه لله سبحانه وتعالى من أجل مواجهة اللقاء الموعود بين نبى وحاكم نمرود .. استجاب الله لندائه .. فقال سبحانه وتعالى :

«قال قد أوتيت سؤلك ياموسى» وأمرهما سبحانه وتعالى بالذهاب إلى فرعون ، وألا يتباطآ فى دعوته إلى الله سبحانه وتعالى ، فتنزل عليه الأمر كما ورد فى قوله تعالى :

«اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» .

فأوضح القرآن فى هذه الآية .. كيفية لقاء الحاكم .. وأسلوب مخاطبته .. وضرورة استخدام الحكمة فى الحديث .. حتى لا يثأر ، فيمتلئ غيظاً وحقداً ، ويتوقف عقله عن الإدراك وأذناه عن السمع .. وتكون العاقبة وخيمة لكل من يبدى نصحاً ، لكن الإقدام على اللقاء مازال يشوبه الحذر والخوف من بطش فرعون وطغيانه .. ، ولذلك عاد سيدنا موسى عليه السلام ومعه أخوه هارون عليه السلام يرجوان الله من جديد .. «قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى» ..

فلما ذهبا إلى فرعون يدعوانه إلى عبادة الله سألهما فرعون «قال فمن ربكما ياموسى» .

فأجاب سيدنا موسى :

«قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» .. فرد فرعون متسائلاً :

«قال فما بال القرون الأولى» .. وكان رد سيدنا موسى حاسماً :

«قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى» .

«سورة طه»

وبعد أن أوضح سيدنا موسى عليه السلام لفرعون دعوته وشرح له عقيدته .. ، كذب فرعون بهذا المفهوم ، لأنه يتعارض مع مصالحه . كما جاء فى قوله تعالى :

«ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى واتهم فرعون سيدنا موسى بأنه يسعى إلى هز عرشه وإسقاطه من الحكم ... وندد به معنفاً :

«قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى» ...

ولقد لجأ فرعون إلى أسلوب السحر لقهر سيدنا موسى عليه السلام ، والسحر كذب على العيون وتعطيل للعقول ، والحاكم الظالم ليس له من سلاح إلا الكذب على الآخرين ، والاستهتار بالناس ، والاستخفاف بعقولهم ، ولقد أمهل فرعون موسى وهارون عليهما السلام ، وأخذ يبحث عن طريقة للكيد لهما وهزيمتهما وتعريتهما أمام الناس .. فأذاع فرعون وكهنته بين الناس أن موسى وهارون .. ليسا إلا ساحرين .. يريدان إخراج الناس من أرضهم .. بما يتنافى مع الطريقة المثلى لنظام الحكم .. وتوضح الآية الكريمة ذلك فى قول الله تعالى :

«قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى» .

«سورة طه»

وقد كان لقاء فرعون لسيدنا موسى هو لقاء كل حاكم طاغية بصاحب رسالة .. فهو لقاء متجدد بتجدد العصور والأزمان .. حتى تظل صورة هذا اللقاء ماثلة أمام العيون لكى تكون درساً وعظة لمن يتعظ . ولقد أوجزت آيات القرآن فى

سورة الأعراف ذلك الدرس القرآنى العظيم بما تخلله من حوار رائع وممتع فيقول الله سبحانه وتعالى :

«وقال موسى يافرعونُ إنى رسولٌ من رب العالمين حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنتَ من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاءُ للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسلْ فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرةُ فرعونَ قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تُلقى وإما أن نكون نحن الملقين . . قال ألقُوا فلما ألقوا سحروا أعينَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

«وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هى تَلْقَفْ مايأفكون . فوقع الحق وَبَطَلَ ماكانوا يعملون . فَغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .. وأُلقىَ السَّحَرَةُ ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين ربِّ موسى وهارون» .

«سورة الأعراف»

لقد رأى السحرة الحق فاتبعوه وكدأب كل فرعون .. حين يجد أنه لم يعد معه إلا المنطق المزيف .. يلجأ هو وكهنته إلى لىِّ

الحقائق ، من أجل ضياع الحقيقة وسط الزيف والتهديد بالبطش والعقاب .. وبهذا تختلط الوقائع فى عقول الناس وتهتز الرؤية .. ولا يبقى من الحدث إلا العقاب القاسى ، الذى ينزله فرعون بمن يخرج عليه .

«قال فرعون آمنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» .

على هذا المنوال تتوالى الأحداث مع الدعوة . ولكن ... ماذا تكون النتيجة ؟ وكيف تكون النهاية ؟! كانت نهاية فرعون ووزيره هامان وجنودهما الموت فى اليم غرقاً !! لكى يكون هذا الحدث عظة وعبرة !! «فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين» .. قد يغرق الإنسان فى ظلمه وجبروته كمن يغرق بين الأمواج .. وهكذا يموت وينتهى من حياة الناس .. ولو كان حياً يرزق .

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإذ قال موسى لفتٰه لا أبْرحُ حتى أبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أو أمضىَ حُقُباً ، فلما بلغا مجمعَ بينهما نَسيا حوتَهما فاتخذَ سبيلَه فى البحر سرباً ، فلما جاوزا قال لِفَتٰه آتنا غداءنا لقد لَقينا من سفرنا هذا نَصَباً ، قال أرءيتَ إذ أوَيْنا إلى الصخرة فإنى نسيتُ الجوتَ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ، قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ، فوجدا عبداً من عبادنا آتينه رحمةٍ من عندنا وعلمناه من لَدُنا علماً ، قال له موسى هل أتّبعك على أن تعلمن ممّا علّمْتَ رُشْداً ، قال إنك لن تستطيع معى صبراً وكيف تصبرُ على مالم تُحِطْ به خُبْراً ، قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحْدِثَ لك منه ذكراً ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتُغرِق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معىَ صبراً ، قال لا تؤاخذنى بما نَسيتُ ولا ترهقنى من أمرى عُسْرا ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلتَ نفساً زكية بغير نَفْس لقد جئت شيئاً نُكراً ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معىَ صبرا ، قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغتَ من لدنى عذرا ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوْا أن يضيّفوهما فوجدا

فيها جِداراً يريد أن يَنْقضَّ فأقامه قال لو شئتَ لَتّخذْتَ عليه أجرا ، قال هذا فراقُ بيني وبينكَ سأنبّئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ، أماَ السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصبا ، وأما الغلـٰم فكان أبواه مؤمنين فَخشينا أن يُرهقَهُما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يُبْدلهما ربُّهُما خيراً منه زَكوةٍ وأقرب رَحْماً ، وأما الجِدارُ فكان لَغُلـٰمَينِ يتيمين فى المدينة وكان تَحتَهُ كنزٌ لهما وكانَ أبوهما صـٰلحاً فأراد ربُّك أن يبلُغا أشُدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلتهُ عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » .

«سورة الكهف من ٦٠ إلى ٨٢»



الرحلة من أجل العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة من أجل العلم

إن الإنسان بطبيعته يسعى إلى العلم والمعرفة فى شتى مجالات الحياة ، فيتعلم ويدرس ثم يعلم غيره ، وهكذا حال الدنيا منذ الأزل القديم ، لكن هناك نوعاً من العلم قاصراً على فئة معينة دون سواها من الناس .. وتعجب حينما تعرف أن أياً من الناس لا يستطيع أن يحصل على هذا العلم مهما كان له من رجاحة العقل ، وفطنة الذكاء ، وكثرة الإطلاع .. بل ومهما كانت وفرة الأموال ، وعظمة الجاه والسلطان .. ويقول أصحاب هذا العلم .. «نحن فى لذة لو علمت بها الملوك لقاتلتنا عليها» .

وهذا العلم .. علم بالله وبأحواله وبشئونه وبملائكته وبكتبه ورسله .. تلك هى المعرفة الحقيقية بالله . وهذا العلم يصفه أولياء الله بأنه .. العلم اللدنى .. أى أنه من لدن الله ، وقد عبر عنه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله «وعلمناه من لدنا علمـــاً» .

ومن خلال آيات سورة الكهف المباركة .. نصاحب أبطال رحلة من أجل العلم .. ، ولنبدأ الرحلة من أولها :

وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً» .

فى هذه الرحلة نرى رجلين صالحين ، يسيران على شاطىء البحر .. أحدهما نبى مرسل وهو سيدنا موسى عليه السلام ، والآخر رفيق له فى رحلته ، يتابع تحركاته وتطلعاته نحو المزيد من معرفة الله والتحقق من الله .. وقد أطلق القرآن الكريم على هذا التابع لفظ .. فتاه وذلك لرسم صورة واضحة عن العلاقة بين سيدنا موسى وتابعه .. فهل اختيرت كلمة فتى لتبيان علاقة السن .. ؟ أم رسوخ العلم .. ؟ أم شكل العلاقة بين معلم وتلميذه .. ؟ أم أنها كلمة شاملة لكل المعانى ..؟ .

ومع بداية الرحلة يتحدث سيدنا موسى إلى تابعه أثناء المسيرة من أجل العلم .. فيقول ماجاء بقول الله تعالى : ـ

«وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً» . أى أنه سيواصل السير حتى يصل إلى مكان يلتقى فيه البحران أو يجاوزه قليلاً .. من أجل الالتقاء بعالم من علماء الله .. ولكن .. كيف حدد سيدنا موسى مكان اللقاء .. !؟ ومامدى علمه بأن اللقاء سيكون فى مكان معين دون سابق اتفاق أو ميعاد ..!؟ لعل ذلك من علوم الله .. وأسراره .. فى الإنسان .. وقد نعللها بأنها .. رؤيا .. رآها فى منامه أو فى يقظته ، أو أن عنده إلهاماً صادقاً لا يخدعه . ولكن ذلك لم يكن مثار جدال بينه وبين رفيقه .. وهذا يعنى أن الرفيق فى حال من .. التسليم الكامل .. والتصديق لما تحدث به سيدنا موسى عليه السلام وحينما نلقى الضوء على سيدنا موسى .. فإننا

نلمس فيه .. الوضوح .. دون الغموض .. فهو لا يخفى عن تابعه .. تفاصيل الرحلة .. وأنها حتى بلوغ مجمع البحرين ، بل أفصح له عن احتمالات الرحلة .. حينما أخبره عن مكان الوصول . واحتمال مجاوزته ذلك المكان قليلاً أو كثيراً ، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقول الله تعالى :

«لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً» .

وهكذا كان طابع سيدنا موسى .. الصراحة .، والوضوح .، وتحديد الاتجاه .. ووضع خطة الرحلة ، واحتمالاتها ... وحينما تتسم الرحلة بهذه المعانى التى عشناها من خلال تلك الدروس القرآنية ، فإنه ينبع من هذه التربية القرآنية صفات تتولد عنها أخلاقيات .. كالحزم .. والعزم .. والصبر .. والمثابرة .. وتحمل المشاق .. وهذه مؤشرات النجاح والتقدم للأمم والأفراد .

ونعود إلى جو الرحلة بعد هذه اللفتة العابرة .. ، لنرى رجلين .. يسيران على شاطىء البحر فى طريق الله من أجل العلم .. يتجاذبان أطراف الحديث الحلو .. فتنطوى الأرض تحت أقدامهما ، دون ماشعور بالإرهاق أو التعب بالرغم من مشاق الرحلة ووعورة الطريق .. وصوت البحر يتداخل بهدير أمواجه متخللاً كل حديث .. وللبحر .. تأملات عند الصالحين .. فهو على كبر مساحته وعظم اتساعه وعمق أغواره لا يعدو أن يكون مخلوقاً ، شأنه شأن كل مخلوق ، فتراه ثائراً وتراه هادئاً ..، وتراه عميقاً ، كما تراه ضحلاً .. والبحر حينما يثور فكأنه يريد

أن يخرج من حيزه إلى حيز آخر .. وكأنما هو سجين فى هذه الحياة ، وليس أمامه سوى حبات الرمال .. فتارة يقسو عليها ويعنفها ويطاردها .. وتارة أخرى يترفق بها ويداعبها .. إنها أحوال كأحوال الإنسان . وعندما تشف الأحاسيس وترق المشاعر ... قد يسمع الإنسان ذو الإحساس المرهف .. بكاء البحر .. فى صمته وسكونه .. وليس لقلب ذلك الإنسان فى مثل هذه المواقف إلا التأثر والشجن من أجل كل مخلوق يمر بأزمة من الأزمات أو موقف من المواقف المؤلمة . تلك هى خواطر الصالحين فى الحياة .. بل لعل دقات قلوبهم تنم عن مزيج من العواطف والحب ، والرحمة .. التى تبدو من خلال أحاديثهم وانفعالتهم ... كانطباعات وجدانية صادقة ... تدعو الناس إلى تصديقهم . والتأسى بهم ، وحب دعوتهم .. إنها لمحات تظهر وتتضح خلال السفر وفى ثنايا تلك الرحلة .. وما أجمل السفر والرحلة مع سيدنا موسى عليه السلام ... أثير القلوب وكليم الله .

وبينما كان سيدنا موسى عليه السلام وفتاه فى حال مع الله .. إذ رأيا أمامهما مجمع البحرين .. فانتابتهما ... فرحة الوصول ... من أجل ذلك اللقاء المرتقب .. لكنهما كانا قد أنهكهما التعب .. فاتجها إلى صخرة بارزة .. يستريحان بجوارها ويتطلعان إلى ملتقى بحرين .. أحدهما عذب فرات .. والآخر ملح أجاج .. ولكنهما لا يختلطان ولا يندمجان .. إنهما

أمام آية من آيات الله .. تجعل القلوب تسجد وتخضع للخالق العظيم .. وإنها لفترة للراحة والسكينة ، والعبادة من خلال التأمل فى الطبيعة الساكنة .. التى استشعراها حتى أنستهما كل إرهاق وتعب .. وبالرغم من شاعرية المكان وإيحاء الطبيعة والرغبة فى الراحة ، إلا أن الرغبة فى العلم ... كانت أقوى ... والشوق إلى اللقاء ... جدد نشاط جسديهما .. لاستكمال السعى والسياحة ... على شاطئ البحر ... لمقابلة ذلك العبد الصالح الذى آتاه الله .. رحمة وعلما .. بعطاء خاص ، ينجذب إليه الأنبياء والأولياء .. من أجل المزيد من معرفة الله سبحانه وتعالى .

وبينما هما على تلك الحالة الروحانية داهمهما شعور بالجوع الشديد .. فأرادا أن يشبعا ذلك الجوع ليقويا على المضى فى الرحلة .. ويقول الله سبحانه وتعالى استهلالاً لذلك الموقف فى الآية الكريمة :

«فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً» .. حقاً لقد أنساهما الشوق إلى اللقاء .. الحاجة إلى الطعام ، بل الطعام نفسه .. وهاهما وقد فقدا هذا الطعام فى مكان ليس به رعى ولا نبات (وإن كان به رزق من الله يكمن فى مياه البحر ، بل إن هذا الرزق تارة قد يزيد حتى يفيض عن الحاجة وتارة أخرى قد يكون هو الحاجة التى لا يظفر بها إنسان جوعان) وهاهو البحر أمامهما ملىء بالأسماك

والحيتان ، لكن اصطيادهما يحتاج إلى الوقت والصبر ، وقد تكون الفرص غير سانحة لاصطياد مايسد جوعهما ، بعد أن ضاع ماكان قد اصطاداه ، فحينما كانا فى مأوى الصخرة نسى تابع موسى ماادخره من لحم طرى من أجل طعامهما ، وهو الذى بذلا فيه المجهود من أجل صيده .

وهكذا نرى أنه إذا كان لابد للإنسان أن يأكل من أجل أن يعيش فإن عليه أن يعمل بلا تكاسل للحصول على الطعام ، فذلك العمل ضرورة من أجل الحياة .. تلك حقيقة وضحت من خلال هذه الرحلة المباركة» .

لكن ياترى ماذا يحدث بين سيدنا موسى وتابعه الذى فقد منه الطعام ..؟ هذا ماسوف نراه حينما نتابع آيات القرآن الكريم التى تستكمل الحدث .. إذ يقول الله تعالى :

«فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ، قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً» .

وهكذا .. اختلفت النظرات .. بين التابع وبين سيدنا موسى عليه السلام فقد قال التابع (فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) فهذا رأيه كما هو يبدو من الظاهر ولكن

الباطن يختلف غالباً عن الظاهر .. فالواقع شىء .. والحقيقة شىء آخر وليس كل واقع حقيقة .. ولكنه قد يكون حقيقة إذا ماتطابق مع الحقيقة الأصلية .. وهنا نجد أن سيدنا موسى ينظر إلى الأمور نظرة البواطن لا نظرة الظواهر .. لذلك قال تعليقاً على ذلك الحديث ماعبر عنه قول الله تعالى : «قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً» .

وهذه الحادثة والصيام المفروض عليهما تعنى . إشارة باطنية .. عند سيدنا موسى .. بأن اللقاء سوف يكون قريباً وسريعاً .. وهى من تلك الإشارات واللطائف التى نلمسها فى حياتنا ، حينما نقترب من معاشرة الصالحين من أولياء الله .. حيث تتكرر المواقف طالما تتكرر الحياة وتتعاقب الأجيال . وحينما نلقى الضوء على قول سيدنا موسى .، ذلك ماكنا نبغ .. فإنه يعطينا لمحة حقيقية عن ذلك اللقاء الروحى العظيم ... فذلك اللقاء يحتاج إلى همة روحية ، وللصيام أثر فعال فى إثارة الهمم الروحية ... حيث إنه يعزل الإنسان نوعاً ما عن رغباته وشهواته ومطالبه الجسدية ، وعندما شعر سيدنا موسى بأنه فى صيام إجبارى تأكد تماماً من قرب اللقاء .. وحينئذ رجعا من حيث أتيا .. فإذا بهما يلتقيان بغتة بذلك العبد الصالح الذى يعرف باسم سيدنا الخضر .. عليه السلام .

وعند اللقاء .. تصافحت القلوب ، وتزاورت الأرواح .. قبل أن تلتقى الأيدى ، وتتبادل الكلمات بالتحية والترحاب .. وهكذا

كان اللقاء .. لقاءً روحياً فريداً .. لا يحدث إلا مع الرسل والأولياء فى لقائهم بسيدنا الخضر .. رسول أهل الباطن .. حيث خفق قلب سيدنا موسى .. ونبض نبضات متلاحقة ذات عواطف متدفقة ، تفيض بالشوق والحب والحنين ، وتمتزج بالرجاء والخوف والرهبة .. إنه اللقاء الموعود . والقدر المكتوب .. فكان كفيضان النهر ، حينما تنساب منه موجات متلاحقة ، تحمل بين طياتها .. أنوار النبوة .. وأسرار الكون وبركات السماء وود الرحمن وقد تجلى الله على الكون بأسمائه الحسنى[1] لتدرك القلوب .. أنها مع اسم الله اللطيف .. ومع إشراقة اسم الله الودود .. ومع سلطان اسم الله العظيم .. العليم .. الخبير .. القدوس ...

إنه لقاء الكون ، مع لحظة تجل من الله ، لكل اسم من أسمائه الحسنى .. إنه اسم الله الغالب[2] .. اسم الله الأعظم .. اسم الله الطاهر الطيب المبارك[3] ...

وتلك طبيعة اللقاءات الروحية .. التى تطرح إجابات سريعة ، ومتنوعة ، ومتلاحقة .. لا تترك مكاناً لما يدور فى النفس من خواطر وتساؤلات .

---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها «آية ١٨ الأعراف» .

(٢) والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون «آية ٢١ يوسف» .

(٣) اللهم إنى أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك الذى إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت وإذا أسترحمت به رحمت وإذا إستفرجت به فرجت . أخرجه ابن ماجة عن عائشة رضى الله عنها .

وسواء كان هذا اللقاء واحداً ، أو عدة لقاءات فى إطار لقاء واحد .. فإنه قد تمخض عن معارف وأحوال ، فى فترة زمنية ليس لها مقاييس وقتية .. فقد تكون فترة طويلة بينما هى فى ظاهر الأمر كلمح البصر .. وذلك تعبير عن نظرة روحانية واحدة ، ومدى ماتصل إليه من نتائج وتأثيرات مذهلة ، وتلك النظرات الروحية لا تقارن بنظرات العيون ، حتى ولو كانت فاحصة .

وهكذا اتسع اللقاء لكل المعانى من تعبيرات . وخواطر وأفكار .. بل حينما يتمهل اللقاء أكثر من ذلك ، تترتب النتائج قبل المقدمات ... وهذا ماسيتضح من أول كلمة تحدث بها سيدنا الخضر .. حيث تكلم بالنتائج والحقائق ونهايات الأمور .. دونما انتظار لمقدمات يترتب عليها نتائج الحديث .

فحينما تم اللقاء بكل معانى اللقاء حدثت انتقالة .. مرتقبة .. من سيدنا موسى عليه السلام .. استشعر خلالها ، أنه أصبح فى حال من الوجود .. كما لو أنه قبل ذلك ، كان فى حال من العدم . إنها خطوة إيجابية . جعلت من الخطوات السابقة فى حياة سيدنا موسى ، وكأنها كانت خطوات سلبية . ومن منطق الوجود فى جو العلم والرحمة .. تتحدث آيات القرآن بل وتتحدث كلماته ، وكأن كل كلمة تعبر عن أحوال .. ومواقف .. وحقائق .. ومعان ، وتلك ترتيبات إلهية من أجل التصوير الكامل لهذا اللقاء الفريد ، حيث يقول الله تعالى :

«فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» .

وهكذا نرى المعانى تتدفق .. كماء منهمر من السماء تتحدث عن .. الوجود .. ومقام العبودية ، والتأسى بالعبودية .. والوهب والعطاء .. والرحمة .. والملكية الإلهية .. والعلم من منابعه الأصيلة .

وحينما تختصر هذه الموضوعات فى بضع كلمات فإن هذه الكلمات تكون :

«فوجدا .. عبداً .. من عبادنا .. آتيناه .. رحمة .. من عندنا .. وعلمناه من لدنا علماً» .

فوجدا : كلمة تعنى الوجود .. وهكذا كان هذا اللقاء الروحى من أجل الوجود والحضور مع الله .. والإنسان يجد نفسه دائماً من خلال العلم والمعرفة بالله .. فحينما التقى سيدنا موسى ، على مابه من حال روحانى عظيم ، بسيدنا الخضر عليهما السلام .. تحقق ذاتياً ، من أنه أصبح ، فى حال من الوجود ، كما لو أنه كان قبل ذلك ، فى حال من العدم .. وحينما ينتقل الإنسان من عدم إلى وجود فإنه يشعر بمدى هذه الانتقالة . ولذا فإنه بمجرد الشعور بمثل هذا اللقاء العظيم ، فإن الإنسان يسلك مسلك الرهبة .. والتسليم والأدب الكامل ،، ولذلك قد تذهب حياة الإنسان هباء .. حينما تكون بعيده عن العلم .

عبداً من عبادنا : كانت الخطوة الأولى فى هذا اللقاء .. أن سيدنا موسى أيقن .. أنه لم يكن موجوداً من قبل .، بالرغم من فطنته الروحية ودعوته ورسالته ومعجزاته وكلماته النورانية . لقد ذاب كل ذلك أمام هيبة العالم .. وحقيقة العلم .. بلقاء عبد من عباد الله الصالحين .. وهذا يكشف عن مقام ذلك العبد عند الله ، ذلك المقام الفريد ، النابع من التواضع .. ونكران الذات ومخالفة النفس .. والله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يذكر اسمه فى القرآن الكريم .. بل جعله نكرة وليس معرفة . بينما كان سيدنا موسى معرفة واضحة تمثل رسالة سماوية كبرى عظيمة مؤثرة فى عالم الهداية .. لكن سيدنا الخضر كان قد خلع نعليه حينما اقترب من معرفة الله ، وحينما خالف نفسه وأهواءه وشهواته ، كان ذلك بمثابة خلع النعلين ، من أجل لقاء الله .. فلابد أن يكون الإنسان متجرداً من دنياه حينما يقف بين يدى مولاه .. وهذا التجريد هو الخطوة الروحانية .. فى اللقاء بالله ، حيث يمثل الاحترام الشديد لله .. إنها الخطوة الأولى لكل مريد ، يريد أن يلتحق بركب معرفة الله . ومن خلال هذه الآداب الربانية دخل سيدنا الخضر عليه السلام إلى مقام العبودية .. أى أصبح عبداً لله سبحانه وتعالى .. وإنه لشرف كبير للإنسان أن يكون عبداً لله .. فهو ليس عبداً للمال أو للجاه أو للشهوات أو للسلطان أو للدنيا .. ولكنه عبد لله . وعلى هذا النحو كلما التقى العبد بالرب ، كلما كان أحرص على رضا مولاه وعلى طاعته ..

«فمثله ـ ولله المثل الأعلى ـ كمثل رجل يعمل فى خدمة سيده ، وهو يعرف ذلك السيد تماماً .. يعرف طباعه وأخلاقه .. ويعرف متى يكون السيد سعيداً راضياً ، ومتى يكون حزيناً ساخطاً .. وهو يعرف متى يتحدث إلى سيده ، ومتى يصمت عن الحديث . كذلك يعلم السيد تماماً مايحيط بعبده وخادمه من مشاغل وأفكار وأهواء . من خلال كثرة اللقاء وكثرة التعامل .. بل أكثر من ذلك فى العلاقة بين السيد وعبده ، إن السيد قد لا يأكل إلا إذا أكل العبد . فإذا كانت تلك العلاقة الدنيوية بين سيد وعبده ، فما بالنا بعلاقة روحية مقدسة بين عبد وخالقه؟» .

فالعبد هنا يعرف تماماً متى يطلب من الله سبحانه وتعالى .: وماهى النوافل والصلوات والأعمال الصالحات التى يتزلف بها العبد إلى ساحة مولاه .. ولهذا العبد أن يطلب من مولاه كيفما يشاء ، ومهما كان الطلب ، فإن الخالق غنى حميد ، لا يعجزه مطلب من المطالب ، مهما كان عظيماً[١] ... هذا هو مقام العبودية .. الذى يتخرج منه الرسل . والأنبياء وأولياء الله الصالحون ، هؤلاء الذين إذا رفع أحدهم يديه بالدعاء فإن الله يستحى[٢] أن يرد يدى عبده صفراً خائبتين ، وقد ذكرهم الله سبحانه وتعالى فى محكم الآية الكريمة :

---

(١) رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه . (حديث شريف) .

(٢) إن الله يستحى أن يرد يدى عبده صفراً خائبتين .

«وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» .

إن لقاء سيدنا موسى بسيدنا الخضر إنما هو لقاء بين نبى كريم وعبد طاهر تخرج فى مقام العبودية .. لم يذكر اسمه فى القرآن الكريم للدلالة على تواضع هذا العبد ، ونكران ذاته ، وليعلم سيدنا موسى أن العبد الذى جعله الله سبحانه وتعالى بمثابة الأستاذ الكبير له .. ليس شيئاً يذكر بالنسبة لله العليم سبحانه وتعالى ، إنه درس آخر فى التفانى وقتل النفس فى رحاب حضرة الله سبحانه وتعالى .. ولله عباد من أمثال هذا العبد ، لا تحصى أعدادهم ولا تعد ، وهؤلاء العباد هم (صفوة الصفوة) لأنهم عباد من عباد الله[1] كما جاء بقوله تعالى :

«فوجدا عبداً من عبادنا» .. تلك هى الصفوة المختارة التى يمدها الله سبحانه وتعالى من رحمته وعلمه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. وكان أبرز ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لسيدنا الخضر ـ الرحمة ـ والعلم ـ كما جاء بقوله تعالى :

«آتيناه رحمة من عندنا» .

---

(١) جاء وصف عباد الله فى سورة الفرقان «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما .. إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ... الخ» .

آتيناه : فبمجرد أن آتاه الله ـ أى أعطاه ـ أصبح مالكاً لما أخذ من عند الله .. وتلك ملكية من الملكية الإلهية .. التى يهبها الله سبحانه وتعالى لعباده وجنوده المخلصين ، ولقد آتاه الله سبحانه وتعالى ذلك العلم ليملكه ملكية خالصة من كل نزاع .. هذه الملكية لا يستطيع أن يحجز عليها حاجز ولا أن يغتصبها مغتصب مهما كانت عظمته وجبروته وملكه الدنيوى ، وهى ملكية لا تزول . حتى ولو زال الجسد من عالمه .. فالأموال تزول والنعيم يزول والدنيا تزول .. لكن حب الله لا يزول . والله سبحانه وتعالى يوضح ذلك الملك وذاك الإتيان فى قوله تعالى :

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير» .

«سورة آل عمران ٢٦» .

وهؤلاء العباد هم .. الوارثون حقاً الذين يرثون الفردوس ويتبوءون من الجنة حيث يشاءون .. فنعم الأجر ، ونعم العطاء ، ونعم ملك الله .. وهؤلاء هم الذين يملكون الدعوة المستجابة .. فإذا دعوا الله فإنه يستجيب لدعائهم .. وأملاك الله كثيرة ومتنوعة .. وهى فى كثرتها وتنوعها مثل كلمات الله حيث يقول الله سبحانه وتعالى :

«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا» .

«الكهف ١٠٩»

ومن أخذ كلمة من الله فإنها تزده إلى الله ، ومن هنا يكون الإنسان .. كليماً لله .. كلمة من الله وكلمة إلى الله - تلك هى حياة التكلم التى توثق الصلة بالله وقد تكون هذه الكلمة إحساساً معيناً ، أو شعوراً خاصاً ، أو مناجاة طيبة .

والكلمات كثيرة تملأ قلوب الصالحين الذين أخذوا ملكية من الله . تظل معهم فى حياتهم ومماتهم وبعثهم .. إنه الملك الذى لا يعدم ولا يفنى ولا يبلى .. إنه الملك الباقى عند الله ، يصفه سبحانه وتعالى فى قوله الكريم :

والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا» .

«الكهف ٤٦»

فإذا ماانقطع عمل ابن آدم فى دنياه ، فإن الباقيات الصالحات تظل مقترنة به ومرتبطة به ، كما يرتبط الوليد بأمه الحنون أو الرضيع بمرضعته من أجل الغذاء والحياة .

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى لهذا العبد الصالح المتواضع أبعاد ملكيته .. بالرحمة والعلم .. تلك هى نوعية الملكية ، أو تلك هى حديقة الملكية ، أو جنتها .

وعلمناه من لدنا علما :

لقد وهب الله سيدنا الخضر العلم مع الرحمة التى آتاه الله إياها .. ولكن هذا العلم له نوعية خاصة ، فهو .. علم الباطن .. المبنى على الحقيقة .. وهو على خلاف علم الظاهر المبنى على الواقع .. لأن الظاهر يعتمد على العقل والحواس ، ولذلك يتغير

بتغير النظرات والمعارف والأشخاص .. (فإذا نظر الإنسان ورأى سراباً حسبه ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .. وكذلك من نظر إلى ساعته لم يلحظ عقرب الساعات يتحرك ولو أنه فى الحقيقة يتحرك حركة بطيئة لا تدركها العين) .

وهكذا فإن حواس الإنسان قاصرة فى كثير من الأحيان عن إدراك الحقيقة .. أما .. علم الباطن أو الحقيقة .. فهو .. من علوم الله .. سبحانه وتعالى .. ولهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. فهو حقيقة مؤكدة ، وكاملة غير منقوصة .. وهذه نوعية العلم الذى منحه الله لسيدنا الخضر عليه السلام ، وهو الحقيقة التى أراد الله أن يوضحها فى القرآن الكريم ، فاختار نبياً هو ، سيدنا موسى عليه السلام .. واختاره بالذات لما له من معجزات كثيرة .. ولم يكن لسيدنا موسى عليه السلام دخل بهذا الاختيار الذى تعرض له ، وإنما كانت مشيئة الله .. أن يجتمع مع عبد شاء الله ألا يذكر اسمه فى القرآن .. وأن يتلمس منه العلم والمعرفة .. فحينما وجده ، ووَجَد وتحقق ، خاطبه قائلاً كما فى قول الله تعالى :

«قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا» .

يقول سيدنا موسى عليه السلام لهذا العبد «قال هل أتبعك على أن تعلمن» وكلمة .. هل .. ؟ أداة استفهام أو استسماح رقيق تعبر عن أدب طلب العلم .. فلطلب العلم آداب .. وعلى طالب العلم ، أن يتأدب أمام معلمه أو مدرسه .. وهكذا يقول موسى عليه السلام ـ هل أتبعك .. ؟ ولم يقل ، سأتبعك .. لأنه

بذلك يفرض نفسه .. وليس من أدب العلم ، أن يفرض التلميذ نفسه على أستاذه أو معلمه .. ولم يقل موسى .. أود أن أتبعك أو أرغب فى اتباعك .. فليس فى طلب العلم إجبار للمعلم . وإنما هو استسماح رقيق من ذلك التلميذ الذى يريد العلم ، ويريد اكتساب الكثير من الخبرات العلمية . وبهذا ضرب القرآن مثلاً في الأدب بين التلميذ والمعلم ..

يقول سيدنا موسى عليه السلام لأستاذه .. هل أتبعك ؟ .. وكلمة .. أتبعك كلمة موحية ، فهو لم يقل له ، هل أرافقك ؟ .. أو هل أزاملك ؟ .. بل قال ، هل أتبعك ؟ ..

ويقول قائل إن الاتباع .. هو أن يكون المعلم فى الأمام والتلميذ فى الخلف ، أو الشيخ فى الأمام والمريد فى الخلف .. هذا هو الاتباع .. وفى الاتباع تواضع ، ومهما كان الإنسان عالماً ، فهو يستقبل العلم فى كل وقت .. وطالما كان فى حالة قبول للعلم المستمر ولم يكتف بما حصله ، فإنه يعتبر نفسه .. طالباً للعلم .. أى تلميذاً تابعاً وآخذاً ومستفيداً .. ولهذا فإن .. من شيمة العلماء التواضع .. وهذا التواضع كان القنطرة .. التى مر عليها سيدنا موسى عليه السلام ، ليلتقى بسيدنا الخضر عليه السلام .

على أن تعلمن مما علمت رشدا :

فالاتباع هنا .. ليس على فساد ، وليس الاتباع على عمل يغضب الله .. وإنما الاتباع من أجل العلم .. والبصيرة .، وزيادة الإيمان ومعرفة الرحمن .. إنه يريد أن يتعلم ، رغم أنه فى مقام

النبوة والرسالة .. فهو طالب للعلم ، ويريد أن يتعلم علماً بعينه وبذاته .، علماً مخصوصاً .. (وليس علماً معروفاً بين الناس أو موجوداً فى الكتب حتى يمكن قراءته ، أو علماً قديماً يعرفه ذلك الرجل الصالح سيدنا الخضر عليه السلام) إن العلم هو .. العلم اللدنى .. الذى قال عنه تعالى : «وعلمناه من لدنا علما» أى علم من عند الله سبحانه وتعالى .. وهذا العلم فى الحقيقة .. هو العلم الذى يجعل الإنسان على يقين من الله ، فلا يخامره شك فى الله **(ومن الناس من لم يتوصل إلى معرفة الله الحقة رغم رجاحة عقله وسعة أفقه وكثرة ماحصله من العلم - كالإمام الغزالى - الذى لم يتحقق من معرفة الله إلا من بعد اعتكاف قلبه على مناجاة الله وتودده إليه ومراقبته لله تعالى)** .. فالعلم اللدنى من خصائصه .. التسليم الكامل لله من قبل ومن بعد .

واليقين الثابت بأن الله مع العبد وغالب على أمره .. والعبد فى ذلك المقام لا يرتاب فى دعائه لله ، فإذا أقسم على الله أبره بالأستجابة .. وهكذا يكون اليقين بالله .. يقيناً صادقاً .. كما كان هذا مع الخضر عليه السلام ، وقد أوضح سيدنا موسى عليه السلام نوعية العلم المراد . إنه يريد أن يتعلم .. علم الترشيد .. كيف يكون الإنسان فى رشد دائم ، وحكمة دائمة .. وهذه .. الحكمة .. هى من علوم الله وأسراره .. والتى قال عنها الله سبحانه وتعالى :

«يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً» .

هذه الحكمة ليست السّنة فقط كما قد يقول بعض المفسرين .. ولكن الحكمة فى الحقيقة هى .. جوهر النبوة .. هى الشجرة النورانية ، التى تحمل كل أفرع الخير والبركة . والحكمة .. لها أبواب كثيرة فى العلم .. ولها فروع كثيرة كمثل ، البصيرة .. فالبصيرة .. فرع صغير من الحكمة .. وهى أن يعطى الله الإنسان ملكة الرؤيا الحقيقية .. وملكة . الإحساس .. كما يعطيه ملكات من الفيض فى الكلام ، وتأويل الأحاديث .. تلك هى البصيرة .. أما الحكمة .. فهى الأصل الكبير الذى تتفرع منه علوم كثيرة .

فالحكمة تجمع تحت طياتها وسائل معرفه الغيب .. ذلك أن الغيب من الله الذى لا يطلع عليه أحداً ، إلا من يشاء من عباده .. فالله سبحانه وتعالى قد يطلع الإنسان الذى ارتضاه على غيبه من فضله وإرادته ، كما أوضحه فى قوله تعالى (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول)

«الجن ٢٦ ـ ٢٧»

ومما رأينا من أمور الحكمة أنها تقوم على الرؤيا .. والمشاهدة .. والمكاشفة .. والهواتف .. والإشارات .. تلك هى الحكمة فى حياة الأولياء . فالرؤيا .. رسالة من الله إلى المخلوقات ، ومهما كانت هذه المخلوقات فإنها تأخذ رسالتها من الله ، ويجوز أن يكون من رأى الرؤيا مسلماً أو غير مسلم ، مؤمناً أو غير مؤمن ، مبتعداً عن الله أو قريباً من الله . لكن الرؤيا ليست كل شىء ، فلابد لها من خاصية التأويل والتعبير .. فإذا اقترنت خاصية التأويل بخاصية الرؤيا فهذا

دليل على أنها .. رؤيا حقيقية .، والرؤيا الصادقة جزء من النبوة ، فلا فائدة فى رؤيا تتضمن رموزاً معينة ، إذا لم تكن تشير إلى معنى مقصود ، ومثال ذلك الرؤيا التى رآها فرعون مصر وقيل له إنها أضغاث أحلام .. لكن فسرها سيدنا يوسف فأنقذ مصر من المجاعة .. (وقد فسرها على أن السبع بقرات العجاف التى تأكل السبع السمان ، إنما هى سبع سنوات قحط يتلاشى فيها المحصول وتكاد تحدث مجاعة بعد سبع سنوات رخاء .. وقد تفادى سيدنا يوسف تلك المجاعة بأن اتبع وسيلة التخزين الجيد .. فأمر بأن يترك القمح فى سنابله حتى إذا مادعت الحاجة إليه ، فصل القمح عن السنابل فتكون طعاماً للماشية .. وبذلك حمى أهل مصر ودوابها من خلال الرؤيا) .. تلك هى الحكمة التى حققتها رؤيا ذكرها القرآن الكريم ، ولم يكن فرعون الذى رأى تلك الرؤيا من المؤمنين أو الأولياء .

وهناك تعبير عند الصوفية يسمى .. بالمشاهدة .. وهى رؤيا على مستوى عال من الشفافية . فالرؤيا .. يراها الإنسان فى حال النوم أو سنة من النوم . ولكن المشاهدة .. يراها الإنسان وهو فى حالة اليقظة الكاملة .. وهذه كانت تأتى الرسل والأنبياء .. كفلق الصبح .. فيستلهم منها الأنبياء والأولياء الحكمة التى يريد الله أن يبصرهم بها ليتصرفوا فى حياتهم على أساس الحقيقة الكاملة .. التى تكون فوق العقل والتصور .. فهى حقيقة مستمدة من الحق تبارك وتعالى . وهذا هو الفرق بين من يعتمد على عقله فقط ومن يؤتيه الله الحكمة من عنده .. حيث إن . الحكمة لا تخطىء أبداً .. ولا تبتعد عن

الصواب .. لأنها حقيقة واقعة .. كما يحل الليل . وكما يتنفس النهار . وكما تبدو الشمس ، وكما يظهر القمر فى السماء .. وهذه الحكمة من . الغيب .. لأنها تغيب عن العقول الإنسانية ، ولا تغيب عن القلوب المتصلة بالله ،، فالحكمة .. هى عالم الحقيقة .. وحينما يتحقق الإنسان من الله فإن هذا التحقق يقابله إيمان كامل بالله .. فإذا أمره الله أن يأتى بعمل من الأعمال ورآه مخالفاً للعقل فإنه لا يتردد فى تنفيذ هذا الأمر .. والأمثلة على ذلك كثيرة .. فسيدنا إبراهيم حينما أمره الله بذبح ابنه إسماعيل .. لم يتردد ، على الرغم من أنه ليس من المعقول أن يذبح أب ابنه .. بل وسيدنا إسماعيل لم يتردد فى قبول أمر الله بذبحه طاعة لله وتسليماً .. وكذلك مثال سيدنا نوح عليه السلام ،، أمره الله أن يصنع سفينته المشهورة فى صحراء ليس بها ماء فصنع السفينة بلا تردد رغم سخرية قومه ،، ومضى بصدقه فى رسالته .. فكانت المعجزة حينما ركب هو والصفوة المختارة بينما غرق الآخرون لعصيانهم وعدم طاعتهم .. ولتكون نجاة المؤمنين زيادة فى الخير وهلاك الكافرين نقصانا فى الشر .. وبالتالى .. تتخلص الأجيال المتعاقبة من عناصر الشر والظلم والعدوان .. فالصلاح فى الأرض .. كالنور فى القلب المؤمن ، الذى لا يقذف الدماء فى الجسد فحسب ، ولكنه أيضاً يقذف النور فى كيان الإنسان لحفظه ورعايته واستقامته فى الحياة .. فالنور يعبر عن الوضع الإيمانى والمعرفة الحقة بالله .

هذا هو العلم الذى كان يريده سيدنا موسى .. ولم يكن منه ببعيد .. ولكن أراد الله أن يضرب مثلاً للمقارنة ، فجعل سيدنا

موسى فى حال من أحوال السلب .. وجعل سيدنا الخضر فى حال من أحوال الإيجاب .. وأحوال السلب تعنى انقطاع الوحى والإلهام .. وانقطاع الوحى والإلهام يباعد بين الظاهر والباطن وبين الواقع والحقيقة وبالتالى تفتقد الحكمة .

وليست الحكمة .. وليدة الفكر والاجتهاد فحسب ، ولكنها تقوم على البصيرة والإلهام ،، وهما من مكونات علم الحقيقة . ومن الملاحظ أنه ليست كل الأعمال والتصرفات العقلية تكون حكيمة ، لكن الحكمة التى لا تخطىء هى التى تتولد من علم الحقيقة الذى يقوم على الرؤيا الصادقة .. والمشاهدات .. والمكاشفات .. والإلهامات .. والإشارات .. وتلك معان يعيش عليها أهل العلم من الأنبياء والرسل وأولياء الله الصالحين .. وهكذا كان حال سيدنا موسى فى لقائه بالخضر عليهما السلام فقال له :

«هل أتبعك .... الخ» .

فماذا كان رد سيدنا الخضر عليه السلام ؟ إنه كما جاء فى قول الله تعالى :

«قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» .. ويقول قائل . إنه ليس فى العلم محاباة .. وقد جلس سيدنا الخضر على كرسى الأستاذية ، وجلس سيدنا موسى عليه السلام كتلميذ .. وحينما قال له التلميذ .. هل أتبعك ؟ قال له الأستاذ بأستاذيته الحازمة .. إنك لن تستطيع معى صبرا !! وليس للأستاذ أن يميز بين تلميذ وآخر وإنما التلاميذ متساوون تماماً أمام المعلم . لا فرق بين تلميذ غنى وآخر فقير

ولا بين ابن وزير وابن خفير ، ولا يجوز للمعلم أن يفرق فى المعاملة بين هؤلاء التلاميذ . ولهذا نجد سيدنا الخضر رغم أن سيدنا موسى هو التلميذ المختار .. يقول له :

«قال إنك لن تستطيع معى صبراً ...» .

وهنا لابد أن حدّث سيدنا موسى نفسه . أنه يستطيع أن يصبر مع هذا الأستاذ . ورغم كتمان ذلك فى خاطر سيدنا موسى إلا أن سيدنا الخضر عليه السلام بادره بقوله كما جاء فى قوله تعالى : «وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» .

إذن هناك .. علم الإحاطة بالأخبار(١) .. وهذا العلم يحتاج فى تعلمه إلى الصبر .. ولذلك قال له الخضر .. إنك

---

(١) هذا العلم الخفى هو أساس المشكلة الكبرى التى تسبب الإعتراض على أولياء الله الصالحين لأن المعترضين تفوتهم مسألة حقيقة هذا العلم ، والله يؤتى من علمه من يشاء من عباده ، ويجب ألا يكون الإنسان فى القرن العشرين محجوباً عن العلم ـ ولماذا يحجب عن العلم ؟ وهل قرر الله ألا يرزق الإنسان علماً أو نعمة من النعم .. إن من يعترضون على هذه القدرات الحقيقية كأنما يعترضون على عطاء الله ـ وهذا العلم كله معان ، فهو ليس علماً ملموساً يقرأه الإنسان فى الكتب ولكنه علم لا يدرس ولا يلقن لأنه علم من الله سبحانه وتعالى .. وهو وحده الذى يهب هذا العلم لأوليائه ـ فليس هناك علم من العلوم يدرسه شخص من الأشخاص ليصبح نبياً أو رسولاً .. ولم تكن هناك مدارس أو جامعات تعلم هذه العلوم وتخرج الأنبياء ليقوموا برسالتهم من أجل أن يتعرف الإنسان على الله ، لذلك فالمعلم هو الله والتلميذ هو ذلك الانسان الذى اختاره الله واصطفاه ليعطيه هذا العلم المكنون وخلاصة هذا العلم عدم الاعتراض على أوامر الله والدعوة المستجابة من الله ، وتحمل المشاق كنوع من الصبر على البلاء وكذلك حال السلب بينما العقلية الصرفة تحتمل الخطأ والصواب .. وهذه أيضاً تكون مطلوبة من أجل كمال الدعوة وتمامها مما تسعه من رحمة لا تضيق بالمعصية والخطأ .

لـن تستطيع معى صبرا .. وكيف تصبر على مالـم تحـط به خبرا ؟ !! .

ويقول قائل .. إن الذى يريد النتائج .. عليه بالصبر .. والصبر هنا جاء فى موضع العلم اللدنى .. فالعلم اللدنى .. والصبر .. مترادفان ، وكلاهما يؤدى إلى الآخر ، وهناك تبادل مستمر بين العلم والصبر . لذلك قال له . إنك لن تستطيع معى صبراً .. لكن المهم .. فكيف تصبر على غير علم ؟؟ إن الصبر لا يقوم على جـهل ! ولا يقوم على غموض وإبهام فإن للخضر علماً خفياً .. لا يعرفه سيدنا موسى وهو فى هذه الحال .. إنه علم الرحمة المستمرة التى هى من صفات الله سبحانه وتعالى فهو الرحيم . وأولياؤه أهل رحمة ، آتاهم الله إياها ، كما جاء فى قوله تعالى : «آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» .

فالرحمة .. لم تكن مكتسبة . ولم يتعلمها الخضر عليه السلام من أستاذ ، وإنما تعلمها من الله سبحانه وتعالى . لأنها من . ملك الله .. الذى لا يحجر عليه حاجر ولا يستحوذ عليه مستحوذ .. وإنما الرحمة منحة ومنة من الله .. يعطيها لعباده الصالحين .. هكذا كانت نوعية هذا العلم ، الذى سوف يظهر فيما بعد على امتداد اللقاء بين موسى والخضر عليهما السلام .

ويستمر الحوار بين سيدنا الخضر الذى (عَلِم بما أوتى من رحمة وعِلْم أن سيدنا موسى لن يصبر على مالم يحط به خبراً) وبين سيدنا موسى (الذى مازالت تحدثه نفسه بقدرته على

الصبر مع سيدنا الخضر معتمداً على مايحسه من رغبة شديدة فى مصاحبته للتوصل إلى الترشيد) فحفزه شوقه إلى أن يقول كما تستطرد الآية الكريمة :

«قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً» .

لقد تساءل سيدنا الخضر مترفقاً .. أنَّى لإنسان سلب حاله الباطنى .. وسار فى حياته إنساناً عادياً وليس مكلفاً برسالة .. ومحجوباً عن العلم اللدنى وبعيداً عن الحقيقة أن يكون رفيقاً لعبد من عباد الله ؟؟ !! إن هذا لمن الأمور المستحيلة .، فلا يمكن أن يحدث تجاوب بين عبد يعيش فى أحوال الظاهر فقط وبين عبد يعيش فى أحوال الباطن !!! ومع هذا فإن التسليم .. كان رباطاً بين الطرفين ، بالرغم مما قد يُثار من الاعتراض ، لعدم التقبل والتفهم لما قد يجرى من أحداث يراها كل منهما بنظرات مختلفة .. وحينما سلم سيدنا موسى قال لسيدنا الخضر ستجدنى إن شاء الله صابراً فإن هذا التقديم والتأخير كان سيحدث نتائج أخرى غير تلك النتائج التى توصل إليها فى نهاية المطاف . لأن سيدنا موسى عليه السلام عليه ذكر المشيئة . إلا أنه لم يقدمها .. وقال متحدثاً عن نفسه .. ستجدنى ـ والسين تعنى المستقبل ، وكان من الأجدى أن يقدم المشيئة أولاً مادام الأمر يتعلق بالمستقبل ، ثم ذكر ربه فقال إن شاء الله طالباً من الله التوفيق فى الصبر على المصاحبة من أجل العلم .. ومع ذلك لم يصبر ولكن أمر الله كان مفعولاً ..

بالرغم من اختلاف مصادر المعرفة بينهما ، فهذا يحكم بعقلة وذاك يحكم بعلمه ، وبالتالى كان لابد من وجود خلاف فى الرأى ، إلا أن الله جعل سيدنا موسى يصبر على مالم يحط به خبرا ويستمر فى المصاحبة والاتباع معتذراً أحياناً ومتوسلاً أحياناً أخرى .. لكى ينتقل مع سيدنا الخضر من واقعة إلى واقعة ومن مكان إلى مكان ... حتى يرى من آيات ربه وكل آية بيان علمى للمزيد من معرفة الله(١) .

وقد استطرد سيدنا موسى فى الحديث مرة أخرى يريد أن يكبل نفسه بالعهود والمواثيق قائلاً .. ولا أعصى لك أمراً .. وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على حرصه الشديد على أن يكون صاحباً وتابعاً لهذا الولى الكبير سيدنا الخضر عليه السلام .

«ولا أعصى لك أمراً» ... ولكن كيف يستقيم هذا العهد مع تلك الخوارق !؟ .. التى لم يألفها الناس فى حياتهم ، بل قد يرونها لما لم يدركوه من عالم الحقيقة ليست إلا ظلماً أو فساداً فى الأرض ، وتلك هى . الرؤيا العقلية التي تجعل الإنسان أحياناً يظلم إنساناً آخر . من خلال ، فكر ظاهرى ، يعيش فى عالم الواقع ولا ينتمى إلى عالم الحقيقة .

وهكذا يكون الإنسان المجرد من الحياة الروحية معرضاً للخطأ فى كل ثانية من الثوانى وفى كل لحظة من اللحظات

---

(١) وكما جاء فى قول الله تعالى :

«ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله» .

وفى كل ساعة من الساعات .. فالإنسان يخطىء فى حق نفسه وفى حق غيره .، طالما ابتعد عن الإلهامات الحقيقية والاتصالات الإلهية والفيوضات الربانية .. وهذه صورة عابرة فى محاورة كلامية بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر .. وكأن هذه المحاورة من شروط الالتحاق بهذه المدرسة .. فلكل مدرسة من المدارس شروط .. وفى تلك المدرسة كان الشرط الأول هو .. الاتباع .. وقد أملاه ناظر المدرسة ومعلمها سيدنا الخضر عليه السلام .. وهو شرط سجله الله سبحانه وتعالى فى مكنون كتابه الأزلى ، كى يعود مرة أخرى .. وحياً يتنزل على قلب رسول الله .. إيذاناً بنشر هذه العلوم ، بل قل افتتاحاً لتلك الكنوز المغلقة .. فليست هذه الآيات مجرد كلمات .. ولكنها حين تتنزل على صاحبها تكون معارف ودرراً كامنة .. إنها ليست مجرد نظريات وأقوال من هنا وهناك ، ولكنها علوم وخبرات وحقائق وبراهين .. إنه علم الأولين .. وعلم الآخرين على قلب الرسول الأمين .. هذا الشرط جاء فى قوله تعالى :

«قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا» .

أن أول شرط هو .. الاتباع .. وعدم السؤال .. وكانت هذه هى نفس الأحوال التى كانت مع أصحاب الرسول الكريم ..

الاتباع وعدم السؤال .. وهذا يعنى التسليم الكامل فى كل ما يأتيه الرسول صلى الله عليه وسلم من علوم ومعارف من خلال أحواله الربانية مع الله سبحانه وتعالى[1] .

ويعلو صوت سيدنا الخضر قائلاً كما يعبر القرآن الكريم :

«قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء» .. ذلك هو الشرط الذى يعنى الجدية التامة ، ففيه نهى عن السؤال .. وفيه علم خفى هو ثمرة الصبر على عدم الكلام .. وذلك من أرفع معانى الصيام.

وحينما يردد الإنسان قول الله سبحانه وتعالى : « فإن اتبعتنى » .. فإنه يدخل بروحه فى صيام للرحمن ويعيش فى جو من السكون بلا اعتراض وبلا شكوى وبلا مطالب ، فيعيش بذلك لحظة شكر .. مركب عليها لحظة أدب . مركب عليها لحظة حق .. مركب عليها لحظة إيمان كامل .

تلك هى صورة .. الصيام عن الكلام فى صحبة علم من الأعلام .. والله سبحانه وتعالى له «الأعلام» المبشرات فى بحر الحياة .. إنها أعلام خفاقة ترتفع وترفرف دائماً ، ولا تنتكس مهما انتكست الأيام وأظلمت القلوب وتباعدت النفوس عن عبادة الديان . ومع هذا العلم يقول سيدنا الخضر فى ثقة مستمدة من ثقته بالله سبحانه وتعالى «حتى أحدث لك منه ذكرا» .

---

(١) قال تعالى «يأأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «انما هلك من قبلكم لأنهم كانوا يكثرون أسئلة أنبيائهم فاتركونى ماتركتكم» .

وكلمة .. أحدث .. هى كلمة ذات فاعلية .. يتفرع منها أسـباب ومواضيع .. إذ كيف يُحدِث سيدنا الخضر عليه السلام !؟ هل سيحدث بلسانه !؟ .. أم سيحدث بقلبه !؟ .. إنها كلمة فوق التحدث فهى تعنى الإحداث أو الفعل .. وهى فاعلية باطنة .. يحركها سيدنا الخضر عليه السلام فى قلب تابعه حتى ينتقل إليه ذلك العلم ويدرك ماغمض عليه من مدركات ومعارف .. ولكن سيدنا موسى عليه السلام لم يصبر كما وعد .. تلك هى طبيعة الإنسان .

ولو أن سيدنا موسى صبر لتعلم بلا كلام .. ولو أنه صبر لتعلم كل إنسان .. ولكن الله سبحانه وتعالى ـ جعل هذا العلم مكنوناً حبيس الصدور والقلوب وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على صبر سيدنا الخضر أيضاً على سيدنا موسى عليهما السلام ـ فسيدنا الخضر عليه السلام كان يطلب دائماً إنهاء اللقاء فى كل خطوة من الخطوات .

ومن هنا .. ومن خلال كل تلك المعانى بدأت الرحلة المرتقبة .. رحلة العلم الفريدة فى الحياة الإنسانية .. إنها ليست رحلة فضاء .. ولكنها رحلة قضاء .. رحلة علم من أجل التعرف على الله . وهنا يقول الله سبحانه وتعالى فى تمثيل واضح لهذه الرحلة الشيقة .. «فانطلقا» .

فمنذ الوهلة الأولى حدثت انطلاقة بين الصاحبين ، فارتقى التلميذ فى هذه الرحلة حتى أصبح صاحباً لأستاذه فى حال

من العروج إلى الله تعالى ، فتلقى هذا العلم لا يكون إلا عن طريق الصحبة .. فهو علم يحتاج إلى المعاشرة ، ويحتاج إلى القرب المتبادل .. لأن ذلك العلم لا تسجله أقلام ، ولا تزدهر به صفحات ، ولا تسمعه آذان ، ولا تنطق به ألسنه ، ولا تبصره عين .. فهو فى مكنون القلب .. لكنه يشع على العين وعلى السمع وعلى الفكر وعلى العقل وعلى اليدين وعلى القدمين ، ويكون هذا الإنسان واقعاً بكامله فى حماية الله .. فإن شئت فقل إن هذا العلم هو .. الفوز برضوان الله .. وإن شئت فقل : إن هذا العلم هو تقوى الله ، فهو علم يقى الإنسان شر الوقوع فى الأخطاء والمعاصى الصارفة عن محبة الله . وإن شئت فقل إن هذا العلم هو أسرار التمكين كما جاء فى قوله تعالى : «وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض» .. وإن شئت فقل إن هذا العلم «اختيار» الله لخاصته .. وإن شئت فقل : إن هذا العلم هو «الذى يحارب كل قطيعة» بين الإنسان وبين الله . فهو علم الصلة الدائمة والود مع الله[1] كما جاء فى قوله الله تعالى : وهو الغفور الودود .

وإن شئت فقل ، إن هذا العلم هو .. «علم التعرف» على أحوال الله .. وإن شئت فقل ، إن هذا العلم هو .. «الإيمان الكامل» بالله وملائكته وكتبه ورسله .. وإن شئت فقل ، إن هذا العلم هو .. «فيصل التفرقة بين عارف بالله وبين غيره» .

---

(١) كما جاء فى قول الله تعالى : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً» .

من أجل هذا كانت الرحلة من أجل .. المزيد من معرفة الله .. وهكذا تحقق سيدنا موسى خلال هذه الرحلة .. فجمع بين الشريعة والحقيقة ، إذ اكتسب حال سيدنا الخضر ، حين عاش فى أحداث هذه الرحلة وظروفها ومشاقها ومتاعبها .. وهكذا كان الطريق إلى الله ليس سهلاً ولا مفروشاً بالورود .. وأيضاً .. ليس صعباً لا يمكن الوصول من خلاله .. إذا لا محل فى طريق الله لسهولة أو صعوبة .. وإنما هى قاعدة .. الاصطفاء .. والاجتباء .. والاختيار .. التى تجعل النفس تصفو وتتذوق معرفة الله .. وتلك المعرفة أشهى من العسل المصفى وأشهى من كل لذة ومتعة .

«فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا» .

هذا هو .. الانطلاق فى عالم العلم ، وفى دنيا الروح ..

حينما تنطلق الأفئدة وتنطلق المعارف .. داخلة فى نطاق الحقائق كاشفة لكل الأمور التى تختفى عن البصائر . إنها حقاً انطلاقة فريدة من نوعها ، حينما ينطلق سيدنا الخضر عليه السلام من عالم إلى عالم ومن حال إلى حال فلم ينطلق سيدنا الخضر بمفرده ، وإنما انطلق مصطحباً سيدنا موسى عليه السلام ، فكلاهما كان فى انطلاقة إلى الله سبحانه وتعالى .. وتلك الانطلاقة تمثّل حالاً من أحوال العروج إلى الله .. فقد كانت هذه الرحلة بمثابة عروج إلى الله ، كما أن هذه الانطلاقة

تعبِّر عن زمن كان فيه حال من العروج ... ومن هنا تتضح ، الخطوات ، والمعالم ، والحقائق ، وتكون الرحلة مشوقة لما فيها من .. كشوفات نورانية .. وأسرار ربانية .. هذا هو حال الانطلاق ، وحينما ينطلقان على هذا الحال ، فإن هذه الانطلاقة تجعلهما كمن يسبحون فى الفضاء ، أو كمن يسيرون على الماء ، فقد حدث لقاء بين عالم الأرض وعالم السماء حتى أصبح التمييز بينهما صعباً .. أهذا الإنسان يمشى على الأرض أم يطوف فى عالم السماء ؟ !!! وهذا يمثل شدة حساسية الروح واتصالها بالله .

هكذا كان حال الصاحبين ، ويستطيع أن يلتمس حالهما من كان يسير هو ومحبوبه ، فإنه .. من شدة سعادته قد لا يشعر كيف يسير أو كيف يتجه .. فهذه السعادة هى سعادة مصغرة من سعادة سيدنا موسى فى صحبة سيدنا الخضر عليهما السلام . وعلى هذا الحال كان المقام .. بالحب .. والإخلاص .

وفى أثناء تلك الانطلاقة تود كل ذرة من ذرات الأرض أن تصافح هذين الهائمين المتفانيين فى حب الله .. وتود كل نسمة من النسمات أن تلتقى بهذين الصالحين اللذين يسر الله لهما سبيلاً إلى مزيد من المعرفة ومزيد من التعمق والتحقق فى عالم الحقيقة الكبرى . وهكذا كانت الخطوات ، وهكذا كانت المشاعر ، وهكذا كانت اللحظات .. فليس فى الدنيا بأسرها أمتع من تلك اللحظات الروحية الجميلة التى التقى فيها سيدنا موسى بسيدنا الخضر عليهما السلام .. إن هذه اللحظات وذلك

اللقاء إنما هو متعة من متع السماء .. وإذا ماتمتع الإنسان فى حال حياته بمتعة من متع السماء . فإنه يكون إنساناً محظوظاً .. يتبوأ من الجنة حيث يشاء .

ومن خلال هذه المتعة الروحية العظيمة ، ترق المشاعر ويبدو كل منهما مترفقاً بالآخر ، من خلال هذه الأحاسيس التى جعلها الله سبحانه وتعالى تتدفق فى عاطفة جياشة وفى حب مستمر ، فهذا الحال الروحانى .. هو الذى سوف يرتِّب الأحداث . فليس هناك جدول لترتيب هذه الأعمال أو اتجاه معين للرحلة .. فالرحلة ليست مخططة أو متفقاً عليها بينهما والشىء الذى ليس فيه اختيار يكون فيه إجبار ، وهكذا تأتى سفينة معينة ، لرجل معين فى لحظة معينة ، لتمر أمامهما ، ليست بالمصادفة ولكن بترتيب إلهى ، ففى هذا المقام لا تحدث المصادفات ، ولكن ترتيب الأحداث وفقاً للمشيئة والإرادة الإلـهية ، فكل أمر يفصل تفصيلاً وكل شىء يرتب ترتيباً . وحينما وقف سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام السلام على شاطىء البحر ، فإن مجرد وقفتهما تلك كانت علامة من العلامات ، التى تستوجب أن يكون هناك سفينة من السفن .. وكانت وقفتهما هذه فيها أمر لأصحاب السفينة لكى يقفوا فى هذا المكان دون اختيار الربان أو تدخل لإرادته .. لكنهما حينما يرفعان أيديهما مشيرين إلى السفينة فإن السفينة تقف فى انتظار حتى تؤدى المهمة . كما أمر الله سبحانه وتعالى .

وحينما ركبا فى السفينة بدأ العمل .. بدأ سيدنا الخضر .. يعمل من خلال البواطن .. «ولو كان يعمل من خلال الظواهر لقام بعمل ظاهرى يؤدى نفس الغرض الذى حققه من خلال خرقه للسفينة ، فكان فى إمكانه أن يعمل على تشويه السفينة وليس خرقها حتى تبدو فى الظاهر بمظهر قبيح لا يقبل عليه ملك أو أمير ، لكنه خرقها لأنه يعمل من خلال البواطن ، ويعيش فى جو باطنى ، كثيراً ماتخرق فيه العادة» .

وحينما بدأ سيدنا موسى عليه السلام ينظر إلى سيدنا الخضر وهو يحفر فى السفينة كان صبره ينفد لحظة بعد لحظة ، (ولو صبر سيدنا موسى من اللحظة الأولى ، لكان قد تحول خرق السفينة إلى مجرد نزع قشرة من قشورها ، لكنه كلما نفدت لحظة صبر من سيدنا موسى كلما كان سيدنا الخضر أكثر خرقاً للسفينة ، حتى إذا نفد صبر سيدنا موسى كان قد تم خرق السفينة نهائياً) ، هكذا نجد أن هناك علاقة بين الصبر وبين خرق السفينة .. فكلما ابتعد الصبر عن سيدنا موسى . كلما زاد سيدنا الخضر من خرقه لها .. ولو صبر سيدنا موسى أثناء ذلك لصبر سيدنا الخضر على خرقه للسفينة ، ولَمَا اقترب هذا الملك من هذه السفينة .. لكن حينما تم خرق السفينة استتبع ذلك مرور ذلك الملك ، الذى يستهويه حب تملك السفن وغير ذلك من الشهوات . فالمسألة عبارة عن .. أمر يرتب أمراً وتصرف يقابله تصرف .. وفعل يقابله رد فعل .. وذلك حال من أحوال أولياء الله الصالحين ... فإذا كان المريد

يمشى برفقة شيخه ،فكلما استنكر المريد فعلاً من الأفعال ، كلما زيدت هذه الفعلة بمقدار الزيادة فى الاستنكار .. وذلك حتى لا يستمر الاستنكار سطحياً . وإنما يكون استنكاراً كلياً .

وهذا يعبر عما كان يدور بين سيدنا الخضر وموسى عليهما السلام . فسيدنا الخضر يحفر خفيفاً فى تلك السفينة .. فينظر إليه سيدنا موسى بعين الاعتراض ، فيحفر مرة أخرى .. وهكذا فلم تكن نظرات سيدنا موسى تحمل اعتراضاً واحداً لكنها كانت تحمل آلاف الاعتراضات .. بعدد كل حفرة حفرت فى تلك السفينة .

هكذا ضرب سيدنا موسى عليه السلام المثل فى الشجاعة والإقدام .. لأنه عبَّر عن الرؤية من خلال الواقع الظاهر .. فلم يصبر على كتمان كلمة الحق وإنما نطقها سريعة ، وإن احتسبت عليه أمام سيدنا الخضر عليه السلام . وذلك لاختلاف الأحوال التى كان فيها كل منهما مع الله سبحانه وتعالى . ومن خلال هذا المنطق تعيش الأجيال تتوارث العمل بكلمة الحق .. تبديها .. ولا تخفيها .. ولا تكتمها ، فلم يكن الإخفاء والكتمان من طابع سيدنا موسى حتى يساير الأمر .. ولكنه كان صادقاً ومخلصاً فيما بينه وبين نفسه .. فحينما رأى منكراً ارتفع صوته بالحق مناضلاً ، حتى ولو كان هذا الجدال مع عبد من عباد الله الصالحين .. وهذا درس من الدروس القرآنية فى كيفية مزاولة الحقوق .. وليت الإنسان

يتمسك بالحق ويجهر بكلمة الحق حتى ولو أدى ذلك إلى أن يفقد الصحبة الروحية من أجل إعلاء كلمة الحق فى شكل المعارضة أو النهى كما حدث فى لقاء سيدنا موسى بالخضر عليهما السلام . ذلك هو اللقاء الشيق الذى يحيا فيه قارئ القرآن فى موكب الحقيقة تارة وفى موكب الواقعية تارة أخرى ... وكلاهما من إرادة الله سبحانه وتعالى . ويعبر القرآن عن حادث خرق السفينة فى قول الله تعالى :

«فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا» .

لقد أعاد سيدنا الخضر ماكان قد اشترطه من قبل على سيدنا موسى من عدم السؤال أو الأستفسار عن أى أمر من الأمور التى يأتيها .. كما ذكّره بما قطعه على نفسه من أن يكون صابراً .

وقد استمر سيدنا موسى محملاً نفسه بهذا التكليف المرهق .. فقد كان عليه .. أن يستمر على حال الصبر ، بينما هو محجوب عن الحقيقة .. فحال سيدنا موسى هو حال المفكر بعقله ، والمجتهد برأيه والمستخدم لبصره ، وهذا حال العقلاء أهل المنطق .. وفى مثل هذا الحال كان سيدنا موسى متشرعاً أكثر منه متحققاً .. وموقف المتشرع .. هو الدفاع الدائم عن

الحق والعدل ومناهضة الظلم والعدوان والتمسك بما يراه حقاً .. فكلما رأى منكراً عمل على تغييره بيده أو بلسانه أو بقلبه .. ولذلك لما رأى سيدنا موسى سيدنا الخضر يحدث ثقباً فى السفينة اعتبر ذلك عملاً ضاراً ومفسداً ، ولم يتقوقع فى إطار صبره ، لكنه رأى من الحزم والعزم أن يعترض على ما أقدم عليه الخضر من تخريب للسفينة .

وإن كان سيدنا موسى قد خرج على عهده بأن يصبر ، إلا أنه كان محقاً فى اعتراضه من وجهة نظره وكما يتطابق مع حال المتشرع تماماً .

كما أن سيدنا الخضر كان قد خرق السفينة ، بغية الحفاظ عليها ، بأن يراها الملك الغاصب معيبة لا تستحق الاستيلاء عليها .، ولذلك كان محقاً فيما أحدثه من خرق السفينة ، وخرق السفينة هنا مثال مُجَسَّد .. لخرق العادة .. وهو من الأحوال الشائعة فى حياة الرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين .. فخرق العادة .. هو عمل غير مألوف ولا يخضع لمقاييس العقل العادية والمتعارف عليها ، ولكنه فى النهاية يمثل .. جوهر الحكمة وعين الحقيقة .

نخلص من هذا إلى أننا مع سيدنا موسى فيما يدركه بعقله .. ومع سيدنا الخضر فيما يدركه .. بحكمة قلبه .. ولقد كان لاعتراض سيدنا موسى معان متعددة كالتمسك بما يراه من حق أو فضيلة .. فالاعتراض من أجل الحق ليس خطيئة.

وإنما هو نصر للفضيلة .. ومن معانى الاعتراض أيضاً أنه يؤدى إلى الإيجابيه التى لا تتستر على المفاسد والمظالم ، وقد أوضح اعتراض سيدنا موسى معنى ثالثا وطريفاً .. وهو كشف قيمة أو أهمية سيدنا الخضر ومدى ماوهبه الله من حقيقة لا سيما أن المعترض ليس شخصاً عادياً وإنما هو نبى من أولى العزم من الرسل وكليم الله .

وأكثر مافى الاعتراض من طرافة أن سيدنا الخضر حينما نظر بعين البصيرة إلى سيدنا موسى هدأ من روعه وطمأن قلبه (بما أفاض عليه من روحه وعلمه المكنون) فى لحظات صمت دون أن يفصح له عن أسباب ماحدث .. فبمجرد قوله :

«ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا» .

حدث ... اغتسال ... كامل من الاعتراض الموجه من سيدنا موسى ، وحدث صفح جديد وحب متصل وتصديق كامل من أجل استكمال الرحلة . فهذه الرحلة لا يمكن أن تقوم من خلال وساوس أو مضايقات أو مجاملات ... فالرحلة صافية ونقية وفى بر الأمان للتحقق من الرحمن .

وحينما امتلأ قلب سيدنا موسى بفيض الحقيقة بادر بالاعتذار بالرقة فى الكلام والاستسماح الرقيق ، فقال قولاً هيناً ،، قولاً جميلا ،، ينم عن أدب النبوة وأثر معرفة الله على سلوك إنسان ـ فيقول القرآن على لسان سيدنا موسى :

«قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا»

إنها قمة الأدب فى مثل هذا المقام .. ففى مقابل :

«ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا» .. بل وربما قام سيدنا الخضر بحركة انفعالية مقصودة فى الظاهر .. وربما كان الصوت فيه تسلط وتأديب لسيدنا موسى ، إلا أن نورانيات الحقائق التى خرجت من قلب سيدنا الخضر حالت بين سيدنا موسى واعتراضه ، وأعطته .. حال التسليم .. والتسليم هو شرط من شروط الرحلة الروحية وطلب للعلم . ولذلك يعتذر سيدنا موسى كأنه يقول .. لا تؤاخذنى .. فإنك تعلم مابى وتعرف أحوالى .. وإنك تعيننى على أداء رسالتى .. ولم التقينا .. ومن أجل أى شيء سلكنا هذه السبيل ؟ !!! إنه من أجل الله سبحانه وتعالى .. فلا تؤاخذنى ولا تحاسبنى على منطوق نطقت به حال رؤية الظاهر واجتهاد الفكر واستخدام العقل أمام مواهب روحك ولطيف حكمتك ، وقد غابت عنى الحقيقة وفرض على أن أعيش بعقلى وأن تُحجب عنى علوم قلبى .. (وهذا المنطق يتكرر كلما انقطع وحى السماء وغاب الإلهام وتضاءلت إحساسات القلب .

هكذا تحدث سيدنا موسى حديث الصدق الذى عهده على نفسه .. لأن كلاً منهما كان يقف فى موقع . فسيدنا موسى كان يقف فى موقع الظاهر المرهق ، ولذلك أراد أن يذكر سيدنا الخضر بأنه ليس فى حاله الروحى ولا فى مكانته الروحية ، ولا فى لباسه الذى يرتديه دائماً فى لقائه بالأحداث ، ولذا فإن

سيدنا الخضر عليه السلام بدأ له أن يتسامح فى هذا الموقف وأن يقبل اعتذاره بعد أن اعتذر سيدنا موسى عما هو فيه من حال .. وقد كان الأمر فى غنى عن كل هذه المواقف الدقيقة لولا إرادة الله فى الكشف عن عالم الحقيقة وحياة الحكمة ونور اليقـين .

ويستأنف سيدنا موسى مسيرته ماضياً فى رسالته من أجل الكشف عن المزيد من الحقيقة .. ولفت الأنظار إلى عالم الغيب والأسرار .

«فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا» .

فبعد ذلك الموقف المثير بين سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام الذى سجل أول اعتراض له على سيدنا الخضر .. حدثت انطلاقة بعد توقف استفسارى أو إنكارى أو تصحيحى . وانتهى هذا الموقف الأول باعتذار سيدنا موسى .. وقد كان هذا الاعتذار انتقالة إلى الخطوة التالية فى عالم هذه الرحلة المرتقبة .. وفى هذه المرة كانت الحادثة أضخم من الحادثة الماضية ، حتى إن وقعها على سيدنا موسى كان له وقع الكارثة .. فقد سبق أن إعترض سيدنا موسى على خرق السفينة ، ولا تزال صورة خرق السفينة مرتسمة فى ذاكرته .. وإذا بسيدنا الخضر يأتى بأمر من الأمور التى حرمها الله ..

بل وجعل من يرتكبها من الخالدين في نار جهنم .. إنها جريمة القتل ؟ !!! .. لهذا كان سيدنا الخضر فى نظر سيدنا موسى هذه المرة هالكا لا محالة !! وذلك من جراء قتله لغلام لم يعترض مسيرتهما ! ولم يكن فى حالة من الحالات التى تستدعى القتل شرعاً .. أى أنه بذلك قتل نفساً بغير نفس !! . إنه غلام برىء لم يقتل ولم يفسد ومع ذلك قتله سيدنا الخضر !! ولم يستطع سيدنا موسى أن يصبر على ذلك وأن يتحمل مثل هذه الكارثـــة .

فرغم أن سيدنا موسى كان قد قام بحادثة قتل من قبل(١) إلا أنها كانت حالة دفاع عن نفس مؤمنة .. أما هذه الحادثة التى أحدثها سيدنا الخضر فقد كانت فى ظاهرها خطيئة منكرة .. حتى إن سيدنا موسى قال له :

«أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا»

وهنا فرق بين الحادثة الأولى والحادثة الثانية ، ففى الأولى قال سيدنا موسى (لقد جئت شيئاً إمرا) وفى الحادثة الثانية قال له (لقد جئت شيئاً نكرا) أى أمراً منكوراً وليس بمعروف .. إنه أمر خرج من نطاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأصبح أمراً بعيداً عن المعروف .

وهكذا كانت الصورة لحظتها أمام سيدنا موسى .. بل وربما ظن أنه أخطأ في لقائه مع سيدنا الخضر عليه السلام !!!

---

(١) حينما وكز رجلاً كان يتقاتل مع واحد من شيعته فأرداه قتيلاً .

وإلا فكيف يتصور أن يصل الأمر بسيدنا الخضر إلى حد القتل ؟؟ !! لقد سلم سيدنا موسى مرة من قبل بخرق السفينة حينما خرقها سيدنا الخضر لكن هل يدخل القتل أيضاً فى عالم التسليم ؟؟ !!

إنها قضية جديدة فرضت نفسها على سيدنا موسى عليه السلام .. وهكذا يكون الاختبار ، وهناك من الاختبارات الربانية ... التى تؤدى بصورة مرسومة إلى فشل المختبر دون مادخل لإرادته فى ذلك .. حيث يتم الاختبار فوق إمكانياته وطاقاته وملكاته العقلية والروحية .. وذلك لحكمة خفية من ترتيبات الله .. ولله سبحانه وتعالى الكثير من الاختبارات .

وإذا كان الله قد اختبر سيدنا موسى بهذا الاختبار .. فإنه أيضاً اختبر سيدنا الخضر فى نفس الوقت ، حين أمره أن يقتل غلاماً يسير فى الطريق .. أينفذ أمر الله .. مع أنه أمر خارق أم لا ينفذه ؟؟ !! (والله سبحانه وتعالى قد أمر من قبل سيدنا إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل) وتلك هى مستويات اختبارات الله ... فتنفيذ الأمر .. حتى ولو بدا بصورة غير منطقية أو عاقلة إنما ينم عن تسليم كامل لله .. وربما كان سيدنا الخضر - فى قتله للغلام - أكثر تسليماً من سيدنا موسى حينما انفعل من جراء مشاهدته للحدث .

وهنا قد يتساءل المتتبع لتلك الأحداث عما قام به سيدنا الخضر من قتل للغلام !! وكيف يرتكب الأنبياء والصالحون

جرائم قتل ؟ !!! ونقول هلى يستطيع المتتبع لهذا السلوك أن يكون هو أيضاً من أهل التسليم !! ؟؟ نعم يستطيع !! إذا كان له معرفة قلبية تقوم على العلوم الغيبية ، كما جاء فى قوله تعالـــى :

«ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء» «آية الكرسى»
ونقول أيضاً إن الأنبياء والصالحين ، لا يقتلون بحد السيف ، إذا كلّفوا بالقتل .. وإنما يقتلون حين يتطابق القضاء مع القدر .. كما أن القتل لا يكون باليد ولا يتسم بالعنف .. ولكنها مجرد نظرة قاتلة أو دعوة مستجابة ، وكلاهما واحد فى نطاق الهمة والإرادة . والإرادة واحدة .. هى إرادة الله سبحانه وتعالى : وفى هذا المقام تكون الإرادة مزيجاً من كلمات ثلاث جاءت فى محكم التنزيل فى سورة الكهف فأردت(١) فأردنا(٢) - فأراد ربك(٣) .. وذلك علم من العلوم اللدنية التى كان يسعى إليها سيدنا موسى فى لقائه بسيدنا الخضر عليهما السلام .

وقد نستيطع أن نستنبط أحداث قتل الغلام .. فكأن سيدنا الخضر عندما تكشفت له مساوىء هذا الغلام كشف لسيدنا موسى عن عزمه ، بأن يدعو الله سبحانه وتعالى ، أن ينهى أجل هذا الغلام بقضاء سريع محتوم ..

---

(١) فأردت أن أعيبها

(٢) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما .

(٣) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك .

وقد يكون فى ظاهر الأمر أن هذا الغلام كان . يتسم بمسحة من الجمال وهالة من الطفولة البريئة .. فلما وقع الغلام صريعاً على الأرض - دون فعل فاعل - صرخ سيدنا موسى قائلاً لسيدنا الخضر «أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟؟ !!» فكانت صرخة اعتراض ، فى ظاهرها .. ولو أنها ، فى باطنها كانت صرخة شفوقة ، على مصارع الإنسانية وإهدارها فى الحيــاة .

لكن سيدنا موسى أدرك أنه قد اتهم سيدنا الخضر . بينما هو ليس الفاعل الحقيقى .. فتعلم من ذلك أن كل ظاهر ليس بحقيقة ولو بدا كذلك للعيان ، وأن للظاهر مدرسة . كما أن للباطن مدرسة .. وهذا الدرس الذى تعلمه سيدنا موسى ، كان فى مدرسة الباطن وليس فى مدرسة الظاهر فلما تحقق بذلك سارع للأعتذار لمعلمه سيدنا الخضر عليه السلام .. فقال حزيناً آسفاً كما جاء فى قوله تعالى :

«قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا» .

وهـذا الحـادث لم يكن غريباً على سيدنا موسى عليه السـلام ، فقد سبق له أن وكز رجلاً فقتله .. والوكزة باليد ظاهرة . وهى لمسة يد قاتلة فى ظاهر الأمر .. لكن اللمسة الحقيقية التى قتلت الرجل كانت هى القوة الروحية التى خرجت من همة سيدنا موسى والتى تتشابه وكيفية قتل الغلام بالنسبة

لسيدنا الخضر عليه السلام .. والفرق بين الحالتين هو الفارق بين الظاهر والباطن .. حيث إن رسالة سيدنا موسى تقوم على كثير من المعجزات التى تشير إلى منهجه فى الرسالة . فرسالته غنية بالمعجزات وخرق العادات . ولكنها لا تكتمل إلا باستخدام العقل والمنطق والشرع ، وذلك من الأسباب الجوهرية للقائه بالخضر عليه السلام ، وكما وضح من اعتراضاته .. فبذلك جمع بين .. لب الحقيقة ، ومنطق الشريعة .. فباطن سيدنا موسى كان يحتاج إلى ظاهر ، ولو كان ضئيلاً .. وقد تم ذلك على شكل استخدام يده حين وكز رجلاً من أعدائه .. بينما ظاهر سيدنا الخضر كمعلم لأهل الباطن كان ، من باطنه .. حيث إنه لم يقتل الغلام بعنف أو كما يشاع عن فصله لرأس الغلام عن جسده ، بل فى يقينى أن القتل كان إنباءً منه لسيدنا موسى ثم .. حدثت الوفاة حينما تطابق القضاء مع القدر .، وهذا ماجعل سيدنا موسى ينسب إليه القتل لسرعة الاستجابة وليس اعتراضاً على قضاء الله وقدره .

من هنا ذهب الناس فى حياتهم مذهبين .. مذهب يعيش من خلال .. الفكر الموسوى . فيما يختص بالقضية المعروضة .. ومذهب عاش واشتغل بالفكر الخضرى .. الذى له أبعاد أخرى فى المعرفة وقدرات أخرى فى التحقق وبصيرة أخرى فى الرؤية .. وهذا هو المسلك الذى جذب المحبين للأنبياء ولأولياء الله الصالحين . أى أن هناك طريقين .. طريقا يتعقب المفاهيم العقلية .. وطريقا يتعقب الأسرار التى تغيب عن العقل وتغيب

عن الفكر ،، وهذا حال وذاك حال .. وخير الأحوال ماجمع بين الحالين معاً (١) .

وهكذا . بعد أن قتل سيدنا الخضر عليه السلام الغلام واعترض سيدنا موسى عليه مستنكراً ماجنته يداه .. أهلت طبيعة سيدنا الخضر مرة أخرى على وجدان سيدنا موسى - فأعادت إليه صوابه ورشده . وتأكّد .. للمرة الثانية أنه يمضى حقيقة مع عبد مرسل ومعلم مؤمن يستقى إيمانه من الله . فيما يتجلى عليه به من اسمه الحق . فعاد سيدنا موسى آسفاً على ماحدث منه من اعتراض على سيدنا الخضر عليهما السلام .. ولكن سيدنا الخضر لم يكن له من قول أكثر مما قاله فى المرات السابقة ، كما لو كان متمسكاً بكل كلمة من كلماته .. قال له سيدنا الخضر ماجاء بقول الله تعالى :

«قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا» .

وهنا تحرج سيدنا موسى عليه السلام وندم على مابدر منه من اعتراض .. وبدا فى صورة حزينة آسفة يريد أن يكفّر عن عدم صبره بأى ثمن .. ولو بقبول إنهاء هذه الصحبة وهذا الارتباط إذا أخطأ فى المرة الثالثة .. فقال سيدنا موسى متحدثاً بلسان رقيق مهذب . وبصوت خفيض يكشف عن حال الألم الذى يعانيه . كما جاء فى قول الله تعالى .

«قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا» .

---

(١) قال أهل التصوف فى ذلك .. من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق .. ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .

إقامة الجدار

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الكهف :

«فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً»(٧٧) .

ومع كل بداية جديدة تتكرر كلمة - فانطلقا - لكى تعبر عن روح الانطلاق .. فى عالم السمو وفى آفاق العلم والمعرفة . كما تعنى الانطلاق أنه لم يحدث مايعكر صفو أى من الطرفين الصالحين ، وإنهما بمجرد انتهاء الحادثة يعودان كما كانا من قبل - وتلك هى طبائع الخيرين . الذين لا يحملون فى قلوبهم الحقد ولا الضغينة ولا الحسد . وإنما قلوبهم بيضاء نقية من غير سوء . فمهما حدث من أحداث فإن .. قلوب الصالحين تظل دائماً مضيئة بالمحبة والنور والهدى .

ويحدثنا القرآن بصورة موحية عن الانفعال الصادق بقوله تعالى : ،

«حتى إذا أتيا أهل قرية» ... فهناك لقاء فى قرية أو بلدة من البلدان التى كانت فى طريقهما أثناء الرحلة . وهى القرية التى ستنتهى عندها هذه الرحلة المباركة .. هذه القرية شأنها شأن كل قرية ، فيها الأثرياء وفيها الفقراء ، لكن يبدو أنها

كانت بعيدة عن التدين الحقيقى وليس فيها أصالة الكرم ولا حب الاستضافة ولا اللقاء الخير فأهلها فى شغل شاغل من أجل جمع المزيد من المال ، وإن شئت فقل إنها قرية من القرى التى يعمل أهلها بالتجارة ويشتهرون بالحرص الشديد . وحينما دخل هذان الزائران إلى هذه القرية لم يجدا قوتاً ولا طعاماً .

ويعبِّر القرآن عن هذا فى قول الله تعالى : «استطعما أهلهما» .. وهذا تعبير عن أنهما طلبا الطعام لحاجتهما الشديدة إليه[1] .

ثم يعبر القرآن عن عدم الاستجابة لطلبهما بقول الله تعالى :

«فأبوا أن يضيفوهما» . وليت أهل القرية .. كانوا من الفقراء الذين لا تسمح ظروفهم بالاستضافة أو كانوا من

---

(١) لأن من صميم عادات الأنبياء والرسل والصالحين أنهم لا يطلبون من الناس شيئاً لأنهم يعتبرون أن الطلب نقيصة ، وأن الإلحاح فى الطلب هو إسفاف ونزول عن حد التربية الإلهية ، ومن أخلاق الصالحين أنهم لا يطلبون من أحد ولا يسألون الناس إلحافاً وهؤلاء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .. وذلك ناتج عن كونهم لا يسألون ولا يطلبون من الناس فهم قد أغناهم الله بالقناعة والزهد فيما هو فى أيدى الناس فجعلهم فى صورة الأغنياء .. بينما أصحاب الأموال من الأغنياء قد يفتقر الكثير منهم إلى أموالهم لعدم قدرتهم على العيش دون ترف أو نعيم وبالتالى يكونون فقراء .. فالغنى من استغنى والفقير من افتقر إلى المال .

البخلاء الذين يتهربون من الضيوف والنزلاء .. ولكنهم كانوا أكثر من ذلك فهم يرفضبون استضافة أو مساعدة لعابر السبيل وهذا أمر غير مألوف وخاصة إذا كان الضيف نبياً كريماً يؤمن بأن من لا يكرم الضيف يكون إيمانه ضعيفاً ومهتزاً[١] .

فإكرام الضيف .. دليل على نقاء السريرة . وطهر القلب ، وطيب النفس . ورغم ذلك كله .. أقدم سيدنا الخضر على إصلاح جدار وشيك الانهيار فليس من المألوف عنده مقابلة الإساءة ، ولا يشترط الإحسان من الناس كى يحسن إليهم .، ولذلك قابل الإساءة بالإحسان . وذلك كله من أجل تغيير جذور مجتمع تلك القرية لتتطبع بالإحسان[٢] .. وتلك من البديهات فى رسالة الرسل وطبيعة الأنبياء .

«فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه» ...

تقدم سيدنا الخضر بالإصلاح .. وكان هذا أمراً عجيباً بالنسبة لسيدنا موسى عليه السلام !! لأن هؤلاء القوم يراهم لا تجوز عليهم الرحمات .. ولو أغرقهم الله كما أغرق آل فرعون مـن

---

(١) والأنبياء كلهم أهل كرم ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن بالله من لا يكرم ضيفه) .. (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) (أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا والناس نيام) .

(٢) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

قبل لكان هذا عدلاً من الله .. ولو أطبق عليهم جبال هذه الأرض جميعها لكان هذا جزاء عادلاً من الله سبحانه وتعالى[١] .

لكن رغم الأحداث وذلك الوجدان الآسف يتقدم سيدنا الخضر عليه السلام لإقامة هذا الجدار ، بل وبالرغم من حاجته الماسة إلى الطعام والشراب والراحة ،، ولكن كان هذا العمل . كالصلاة والصيام وككل الفرائض التى فرضها الله سبحانه وتعالى من أجل العبادة ، فى مساعدة الغير ومساعدة الضعفاء واليتامى والمحتاجين ، وشأنه شأن الصلاة والصيام والعبادات كافة . فسيدنا الخضر وهو يقيم هذا الجدار . كان فى صلاة مع الله ، وكان فى تسبيح وذكر الله ، أكثر مما يذكره أهل الأوراد والأذكار ، وذلك هو ذكر الله .. بالبناء والتعمير . وفى أثناء هذه العبادات من خلال العمل .. فإن .. كل عمل خيِّر يصيِّره القلب الخاضع عبادة - وهذا هو مفهوم العمل بالنسبة للإسلام .. فالعمل .. عبادة وذكر لله ، والعمل . يكون من أجل الله وليس مخافة رئيس أو محاسب ، ولذا فإن المؤمن لا يحتاج

---

(١) فهذا من الأمور الظاهرة ، فالإنسان إما أن يكون كريماً وإما أن يكون بخيلاً وخسيساً والفرق بين البخل والخسة أن البخيل يبتعد عن الكرم .. وإكرام الضيف ، والخسيس هو الذى يبتعد عن إكرام الضيف بالرغم من حاجة الضيف الملحة إلى الاستضافة أى أن البخيل يتهرب من الكرم ، والخسيس لا يتهرب فحسب ولكنه يرفض الكرم بإصرار وإمعان .. هذه أصناف من النفس الإنسانية فمنها نفس كريمة ونفس بخيلة ونفس خسيسة والله سبحانه وتعالى يحارب هذه الخسة وينقى هذه النفوس من الشح والبخل ويأمر الناس بالزكاة والصدقات من أجل قتل الشح والبخل والخسة .

إلى رقابة من الآخرين وإنما يكفيه رقابة الله . فيعمل وهو يعلم أن من أخذ الأجر حاسبه الله عن العمل . فإذا كان العمل هو مفهوم العبادة عند الله فكما أنه لا يليق بالإنسان الذى يؤدى الصلوات أن يطالب بأجر عليها ، فكذلك العمل الصالح عبادة لا يجوز أن يطلب عنها أجرا .

ولذلك حين تحدث سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر كما جاء فى قول الله تعالى : «قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً» .

كانت تلك الحادثة هى التى أدت إلى الفراق المحتوم بين موسى والخضر عليهما السلام ، وكما سبق أن تنبأ سيدنا الخضر مقدماً حين التقى بسيدنا موسى قائلاً (إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) .

وكانت الخاتمة .. هى تلك الحقائق التى تعيش فى وجدان سيدنا الخضر عليه السلام .. كما عبر عنها القرآن فى قوله تعالى : «قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا» . وحينما يقوم سيدنا الخضر عليه السلام بسرد الحقائق . فإن الحقيقة لا تحتاج إلى تصريح أو بيان أو تفسير ولذا فإن مايقوله سيدنا الخضر عليه السلام إنما هو توضيح لكلمات الله التى خرجت من لسان سيدنا الخضر فى موضعها لوضوحها كل الوضوح .. يقول الله تعالى : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك

يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكانا أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى» .

وقبل أن يحدث الفراق .. أراد سيدنا الخضر أن يؤول لسيدنا موسى مالم يستطع عليه صبراً من معارف وحقائق .. وهناك فرق .. بين تأويل المعارف والحقائق ، وبين الإخبار والإنباء عن المعارف والحقائق .. لأن كلمة ـ تأويل ـ لا تؤدى إلى الإخبار الكامل ، ولكنها تؤدى إلى .. الإيضاح من خلال الحقيقة .. وقد تحدث سيدنا الخضر فيما يختص بإيضاح الحقائق .. فلم يتناول كل الحقائق حينما قال لسيدنا موسى قول الله تعالى : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» .

أما السفينة فهى التى قدر لهما أن يبحرا عليها بعد أن أشارا إليها من الشاطىء البعيد لكى تأتى إليهما طائعة .. وليست مختارة .. من خلال إشارتهما . لأن هناك من الهمم الروحية والعزائم القوية التى تحرك الموجودات .

وهكذا تحرك أصحاب السفينة إلى سيدنا موسى والخضر عليهما السلام ليكونا من بين ركابها .. وهذه حقيقة خفية تكمن فى ذلك التأويل .

أما السفينة فكانت لمساكين ـ فأصحاب السفينة ليسوا غرباء عن رحمة الله .. لأنهم من أولئك المساكين الذين يعملون فى البحـر .. وللمساكين أحوال لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد لا يُقصد بالمساكين أولئك الفقراء أو المحتاجون الذين يكدحون فى عملهم فقط وإنما يقصد بهم أيضاً أولئك الخاشعون الخاضعون الذين أنزل الله السكينة فى قلوبهم ليصبحوا من أهل السكينة .

من أجل هذا كانت الرحمة التى حفظت السفينة لأصحابها الذين وصفهم الله بكلمة . مساكين يعملون فى البحر .. فهم من العاملين ،، العمل عبادة سواء كان فى البحر أو فى البر ولابد من العمل فى كل مكان .. فالآية الكريمة تحث على العمل حتى لم يعد لأحد حجة فى التذرع بالبطالة ـ ثم قال الله تعالى على لسان سيدنا الخضر : «فأردت أن أعيبها» .

وقد تحدث الخضر عليه السلام من خلال علمه الإرادى .. وعلم الإرادة .. من العلوم التى أوضحها الله فى القرآن الكريم ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى عباده تلك الإرادة ـ التى هى حقيقة من إرادة الله ـ فإذا أراد العبد الصالح . فإن هذه الإرادة من إرادة الله . فتكون نافذة .

وكان وراءهم ملك .. وهكذا أراد سيدنا الخضر عليه السلام أن يعيب هذه السفينة .. والعيب من المظاهر التى لا يقبل عليها الناس ، ولذلك .. اتخذ سيدنا الخضر من العيب حماية ووقاية

لأصحاب هذه السفينة . حتى لا يستولى عليها ملك كان يأخذ كل سفينة غصبا .. وهناك حقائق لم تذكر لكنها قد تكون واضحة لأن سيدنا موسى كان عدوا للملوك والفراعنة ـ ويبدو أن المسألة ليست مسألة حماية سفينة بقدر ماكانت حماية سيدنا موسى عليه السلام من أن تقع عليه عين عدوه ـ الذى يجوب المياه ويتطلع إلى الركاب الموجودين فى السفن ويستولى على مايملكون أو ما يتاجرون به من بضائع وغيرها .

يأخذ كل سفينة .. وهكذا أراد سيدنا الخضر فى صحبته لسيدنا موسى أن يريه عدوه وأن يجعله يتطلع إلى مطامع الملوك وفسادهم وظلمهم فى الأرض والبحر ـ من أجل أن تكون رسالته دائماً مقاومة لكل استبداد وقوة باطشة على هذه الأرض .. حتى ولو كان يؤازرها ملك يقود جحافل الجيوش .

وهكذا مرت السفينة فى هذا الموقف الذى يحمل كل المعانى .. فهو موقف أصحاب السفينة وهو موقف سيدنا موسى عليه السلام .. وهو موقف سيدنا الخضر .. وهو موقف رسمه الله سبحانه وتعالى لكى يحافظ على هذه السفينة من خلال الحقائق الخفية .. وهو موقف ذلك الملك الطاغية الذى يريد أن يملك كل ماتقع عليه عينه فى حياته وداخل مملكته . ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن .. المهمة الحقيقية لسيدنا الخضر فى هذه الرحلة كانت من أجل ـ أن يواصل سيدنا موسى دعوته وحياته وجهاده المتواصل من أجل الله ـ وقد كان حقل العمل

الذى مارس فيه سيدنا موسى رسالته على مقربة من هؤلاء الفراعنة .. فطالما كان هناك ملوك يطمعون ويسلبون ، فإن رسالة سيدنا موسى لن تغفل عن الظلم والعدوان .. بل إن الرسالة تتخذ من ظلم الملوك والحكام مكاناً جوهرياً لممارستها .

وكذلك فإن اتجاه السفينة قد يكون إلى مصر ، من أجل أن يتابع سيدنا موسى رسالته وعمله فى ذلك المجتمع ، الذى أراده الله سبحانه وتعالى أن يكون مجتمعاً مؤمناً بالله(١) .

ولذلك فرسالة سيدنا موسى تعتبر من الرسالات العظيمة التى تحتاج إلى همة كبيرة وجهود عظيمة من أجل تحقيقها .. ومن أجل هذا كان لقاء سيدنا موسى بالخضر عليهما السلام .. ذلك اللقاء الذى أضفى مساحات من الحقائق التى قد تغيب عن عقول المفكرين وبصر الشاخصين والفاحصين .

---

(١) وتلك من الحقائق التى أوضحها التاريخ القديم من وجود قناة موصلة بين النيل والبحر الأحمر تسمى قناة سيزوستريس . وعلى شاطىء هذا النيل تنمو المواهب الأدبية والفنية وتكثر الحضارات ويزداد الفكر تعمقاً ورسوخاً ، والحياة على ضفاف الأنهار فيها نوع من الاستقرار والهدوء يؤدى إلى حب العلم وطلب المزيد من الثقافة والحياة المدنية المتكاملة ، ولذا فإن مصر فى عهد سيدنا موسى كانت تعتبر مهداً لأرقى الحضارات والعمل فى مثل هذا المكان إنما هو عمل مثمر حقيقة ، لأنه يؤدى إلى ايمان راسخ مستقر وليس إلى إيمان متأرجح كأيمان من لا يعيشون بجوار الأنهار فهذه الأرض خصبة وهى أكثر خصوبة فى الحفاظ على كلمات الله ، ولعل هذا مايفسر أن يكون مصر فى عصرنا الحديث رائدة الفكر وحماية الدين ويرجع ذلك إلى أصالة شعبها .

وكانت هذه إرادة الله من أجل - تثبيت أقدام سيدنا موسى . بل ووصوله إلى ساحة العمل - من خلال لقائه بسيدنا الخضر عليه السلام . وقد تكون تلك هى بعض الحقائق التى تنساب من كلمات القرآن الكريم .. ويستطيع المتأمل لكلمات الله سبحانه وتعالى أن يستشف الكثير من أسرار هذه الرحلة التى جعلها الله سبحانه وتعالى بين كلماته ، والتى أوضحت سلوكيات كثيرة فى القرآن الكريم ..

فسيدنا الخضر عليه السلام أظهر السفينة بمظهر العيب .. وقد يكون ذلك من الظواهر كما قد يكون من البواطن ..

والغالب أن يجمع بين الظاهر والباطن .. وذلك من خلال - ما ألقاه سيدنا الخضر على الملك من أسرار «مما علمه الله» - جعلته يرى السفينة معيبة أكثر من هيئتها الحقيقية - لأن مجرد وجود ثقب بالسفينة تتسرب منه المياة لتغمرها قد لا يكون كافياً لجعل الملك يتنازل عن ملكيتها واقتنائها بعد إصلاح ذلك العيب .. لكن هيبة وجلال ووقار عباد الله الصالحين .. حالت بين الملك وبين السفينة - بفعل تلك القدرات والمواهب التى يتسلح بها من يعمل من أجل الله تعالى .. فتلك المواهب بمثابة الأسلحة التى استخدمت فى كثير من المواقف مع الأنبياء ، فسيدنا عيسى غادر قومه دون أن يروه وترك بصمات خلفه ظهرت واضحة على شخص آخر حتى ظن الناس أن عيسى عليه السلام هو الموجود .

وكذلك عندما خرج سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على المشركين فجعلهم فى سنة من النوم ومر أمامهم ولم يدركوه وتلك من أسرار الله التى يعطيها لأنبيائه .. وهذا الذى حدث تكرر فى الغار عندما كان الرسول يختبىء بداخله ولو نظر الكافرون تحت أقدامهم لرأوه هو وصاحبه .. إذن هناك من الأسرار التى تحجب الأبصار عن الرؤية . وذلك من علوم الله التى جذبت سيدنا موسى عليه السلام .. من أجل التعرف على الأسرار والمعارف والحقائق . كى تعينه على مقاومة الطغاة من الملوك والحكام . وهذا يفسر المعجزة التى أحدثها الله على يدى سيدنا موسى عليه السلام حينما ضرب البحر بعصاه .

هكذا كانت اللقاءات الروحية مع سيدنا الخضر ، ليست مجرد لقاء يبدأ وينتهى .. ولكنه لقاء له آثاره المتأصلة فى الأرواح .. وفى قلب سيدنا موسى عليه السلام .. وفى تمكينه من أسرار الله فى حياته يصلح بها أمره فى دنياه .

غصباً .. إنه موقف الاغتصاب الذى لا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى متمثلاً فى أولئك الملوك الذين يغتصبون أملاك الناس ظلماً وعدواناً عن طريق القوة والقهر .. وقد جاء ذكر هؤلاء فى القرآن الكريم من خلال ذلك الملك الطاغية الذى كان وراء المساكين يأخذ كل سفينة غصبا .. ومن هنا لا يحق لحاكم أو ولى أن يغتصب أملاك الناس ليضيفها إلى أملاكه الخاصة لأن هذا الاغتصاب فيه بُعدٌ عن شريعة الله .. وكذلك أباح

القرآن الكريم الملكية للناس فلا يجوز لأحد الاعتداء على هذه الملكية ، وذلك من خلال عرضه لملكية المساكين بالسفينة ، حيث يقول : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر» .

ثم ينتقل القرآن إلى الحادثة الثانية كما أولها الخضر لموسى كما جاء فى قوله الله تعالى : «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا» .

وأما الغلام : هكذا انتقل سيدنا الخضر من موقف من المواقف التى اعترض عليها سيدنا موسى إلى موقف آخر .. هو ذلك الموقف الذى قتل فيه الغلام . والغلام لا يمثل نفسه فحسب ، ولكنه ربما يمثل - وراثة سوف تستمر فى عالم الإنسانية ، فمن سلالة هذا الغلام قد يأتى هؤلاء الظالمون والحكام المارقون وسفاكو الدماء والقتلة المفسدون .. فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينقذ الإنسانية من هؤلاء المفسدين فى الأرض بعد إصلاحها - وربما كان قتل الغلام بمثابة قتل لأحد جذور المفاسد والمظالم التى كانت ستملأ الأرض - فكانت .. رحمة الله فى قطع هذا المد الوراثى الذى سوف يستمر أجيالاً فيها شجرة الفساد ، وهى شجرة خبيثة اجتثها سيدنا الخضر بقتله لذلك الغلام .. فالأصل هو الصلاح والإيمان .. من أجل ذلك يذكر الله سبحانه وتعالى أن أصل هذا الغلام من أبوين صالحين مؤمنين .. فالخير دائماً يسبق الشر .. والصلاح هو الأصل والفساد هو الاستثناء .. وصلاح الآباء يمثل نقاء الفطرة

التى فطر الله الناس عليها .. والله سبحانه وتعالى يحافظ على المؤمنين من شر تلك الأمور . التى قد تبدو هينة ومستصغرة كصغر ذلك الغلام بالنسبة لأبويه .. كما يحافظ على تلك الأجيال الطيبة الصالحة بالقضاء على الشرفى منبته حتى لا يرهق المؤمنون بالطغيان والكفر .. ويقول الله فى كتابه العزيز :

«فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا» .. وتلك هى - الخشية الواضحة والغيرة على الإيمان المتأصل فى تلك القلوب التى أسلمت قيادها لله سبحانه وتعالى .. والله يحافظ على القلوب المؤمنة المخلصة .. فيبعد عنها كل شر .. وكل مايؤدى إلى إرهاقها من عوامل القهر والظلم والطغيان والكفـــر .

طغياناً وكفرا .. لقد جعل الله الطغيان بمنزلة الكفر .. فالذى يطغى فى الأرض كالذى يكفر بالله سبحانه وتعالى .. فجعل الله الكلمتين مترادفتين - طغياناً وكفرا - فالحاكم يجب ألا يكون طاغياً يشبع رغباته وشهواته فى غير ما أحل الله لأن ذلك بمثابة الكفر والعياذ بالله .

وهكذا النظرات إلى القرآن مختلفة ومتفاوتة ، فهناك من يدركون القرآن بعقولهم - وهناك من يدركون القرآن بقلوبهم - يحيون بالقرآن ويعتبرونه قنطرة موصلة إلى حياة باقية متصلة بربها من نور وهدى ورحمة .. ثم تنتقل الكلمات المباركة إلى بركات الله للمؤمنين فيقول تعالى : «فأردنا أن يبدلهما ربهما

خيراً منه زكاة وأقرب رحما» .. وقد بدأت هذه الآية الكريمة بكلمة ـ فأردنا ـ وهى فى حقيقة أمرها تعبير عما يجيش فى قلب سيدنا الخضر عليه السلام .. وتعبير عما أعطاه الله له من علم .. ومن أجل هذا يقول الله سبحانه وتعالى : «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما» .. وتلك هى إرادة الله سبحانه وتعالى وإرادته دائماً فى كل خير .

وحينما تحدث سيدنا الخضر عليه السلام بكلمة «أردت» كما فى قوله تعالى : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها» .. فإن هذه الإرادة .. إنما هى إرادة الله سبحانه وتعالى .. وهكذا كلمة «الإرادة» هى سر من الأسرار .. ولقد أوضحها القرآن فى هذا الموقع الإيمانى على أشكال ثلاثة :

(فأردت أن أعيبها) ـ (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما) ـ (وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

وهكذا رأينا أن القرآن الكريم قد حدد عالم الإرادة بثلاث كلمات .. فأردت .. فأردنا .. فأراد ربك .. ولله رجال إذا أرادوا أراد الله ، وإذا شاءوا شاء الله .. ويقول عنهم سبحانه وتعالى : «لهم مايشاءون عند ربهم» .. وهذه الكلمات إنما هى تعبير عن أحد فروع العلم اللدنى الذى أراده سيدنا موسى عليه السلام .. بل وكانت تعبيراً عما عاشه سيدنا موسى فى هذه الرحلة

مكتسباً لهذا العلم الصافى - الذى أراد الله تعالى أن يكون قوة معه في الأرض لتجعل من كلماته ناطقة بأمر الله تعالى وتلك من خواص الدعوة المستجابة - وعلم الإرادة - هو جنة من جنات الله على الأرض ، وتلك الجنة تبوأ منها سيدنا موسى وهو سائر فى طريقه إلى الله حيث عاش فى هذه الجنة وانتقل من جنة إلى جنة .. وقد عبرت كلمات القرآن عن تلك الجنات فى آية واحدة ، فإذا خرج سيدنا موسى من جنة (فأردنا) .. فإنه ينتقل إلى جنة أخرى من خلال (أن يبدلهما) وهى أيضاً من العلوم الربانية التى فيها أسرار التبديل .. وهى طاقة روحية تعمل .. على التحول من حال إلى حال .. فإذا كان هناك حال من أحوال الفساد أو الطغيان أو الكفر أو حال من أحوال الشر .. فإن حامل علم الله .. ينزع هذا الشر وذلك الغيظ من تلك القلوب ، ويحولها إلى قلوب لينة رحيمة من خلال .. نظرة روحية .. واحدة .

وهكذا يختص هذا العلم بالتغيير والتحول من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى المعرفة . ومن الظلم إلى العدل ، ومن الظلام إلى النور ، إنه علم التبديل والتحول .. وهو من .. الأسرار اللدنية .. التى تعتبر الجنة الثانية التى عاشها سيدنا موسى عليه السلام . وهكذا انتقل سيدنا موسى من جنة إلى جنة كما ينتقل الطائر من غصن إلى غصن فى حياة الإيمان القوى بالله .. وما إن خرج من هذه الجنة حتى دخل جنة أخرى فى كلمة أخرى من كلمات القرآن الكريم فى تلك الآية المباركة

كلمة «ربهما» إنها جنة القرب .. من الرب ، والإنسان حينما يكون فى إطار القرب من الله فإنه يدخل إلى هذا الإطار أو إلى تلك الجنة من مدخل العبودية لله تعالى يحيا فيها حياة من الربوبية لله تعالى .. فهو لا يرتضى أن يكون له رب إلا الله ، فلا يرتضى المال رّباً ولا السلطان ولا النعيم رّباً ولا الأبناء رباً ولا أى شىء فى حياته يرتضيه أن يكون له رّباً .. ولكنه ارتضى أن يكون ربه الله .. سبحانه وتعالى .. ومن كان على هذا النهج فهو .. من عباد الله الصالحين .. ومن كان من عباد الله الصالحين فهو قريب إلى الله .. والقريب قريب بكل معانى هذه الكلمة .. ويقول الله تعالى : «و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» .

«البقرة ١٨٦»

هكذا جنة الله من خلال كلمة الرب .. وحينما يعيش الإنسان فى إطار هذه الجنة فإنه يكون على قمة كل جنة من هذه الجنان .. بل يعيش فى أرقى الجنات لأنها ـ جنة الرب ـ يحيا بنورها ، ويعيش برضوانها ، ويمتلىء بعاطفتها ورحمتها ويسمو بجلالها ولطفها .

تلك هى الجنة التى أعدها الله سبحانه وتعالى .. للقلوب النضرة ـ حيث يقول سبحانه وتعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» .

«القيامة ٢٢ ـ ٢٣»

وهكذا كانت الرحلة في ختامها الجميل أن يحيا سيدنا موسى فى .. جنة الإرادة .. وجنة التبديل .. وجنة الربوبية ثم تأتى الكلمة التالية وهى كلمة الخير حينما يقول الله سبحانه وتعالى : «خيراً منه زكاة وأقرب رحما» .

ومن عاش فى جنة الربوبية فإنه يعيش عيشة هانئة فى جنة الخير .. لأنَ الخيرَ هو انعكاسه حقيقية للعبادة الصادقة . وهكذا نجد أن الخير جنة من جنات الله أرادها الله أن تكون من علومه اللدنية التى تجعل من يعيشون فيها على معرفة من ربهم فى نطاق الخير والاطمئنان والسلام والسعادة «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .. ومن يتذوق طعم جنة الخير يجد ثمارها من أشهى الثمار التى تترك آثاراً طيبة فى حياة القلوب المؤمنة ـ التى فطرها الله على حب الخير .

فكلما ساد الخير فى الأرض كلما كان ذلك دليلاً على عبادة الله .. فالأرض التى يتقلص منها الخير هى أرض تقلص أصحابها من رحمة الله .. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة) .. وعلى عكس ـ أصحاب الخير ـ الذين هم أصحاب الجنة ، يوجد نقيضهم من أصحاب النار وأصحاب الشر .. وأصحاب الخير كلما تواجدوا تواجد الخير .. كما أن هناك من أصحاب الإيمان الذين إذا وزن إيمان أحدهم عادل إيمان الملايين ويكفى لأرض مجدبة رجل خيِّر من أصحاب الخير ليحيلها إلى جنة لله على الأرض ـ يتبوأ

منها كل عبد صالح الخير .. وينعم بنعم الله فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

تلك هى ـ جنة الخير ـ التى تألق وازدهر فيها ربيع قلب سيدنا موسى من خلال لقائه بسيدنا الخضر عليه السلام .. ثم انتقل سيدنا موسى عليه السلام من جنة الخير إلى جنة الزكاة كما جاء فى قول الله تعالى : «خيراً منه زكاة وأقرب رحما» ـ وجنة الزكاة ـ هى جنة أصيلة فى حياة الإنسان ... حيث لا يقبل إنسان عند الله إلا إذا دخل من جنة الزكاة وإقامة الصلاة فهذة الجنة هى جنة الحب .. التى يزكى فيها الإنسان أخاه الإنسان .. يزكيه بالكلمة الطيبة ويزكيه بالأمنية الحلوة ويزكيه بالخير والنعيم .. تلك هى حياة أهل الزكاة . وهى حياة ليست قاصرة على من يخرجون أموالهم لأداء فريضة الزكاة ، لكنها أشمل وأعمق من إخراج الأموال ـ وبهذا يشترك فيها كل الناس فقراء وأغنياء .. حينما يتمنون لغيرهم الأمانى الطيبة .. ويفرحون بما أنعم الله على الناس من نعم .

فتلك هى الحياة الأصيلة للذين يخوضون فى جنة الزكاة ـ ومن خاضها فإن الله سبحانه وتعالى يزكّيه ويتجاوز عن سيئاته .. إنها شجرة الشفاعة فى الأرض ، التى جعلها الله من أجل التزكية وإبراز العمل الخير حتى وإن كان ضئيلاً .

وهناك فارق بين من يعيشون فى هذه الجنة فى حياتهم . وبين من يتصيدون أخطاء الناس ويحقدون عليهم ويتمنون زوال

النعمة منهم من خلال الحسد والنقمة ، وهؤلاء ولا شك خارجون عن هذه الجنة .. لأن من يحيا فيها لابد أن يكون طاهر القلب صافى الروح مطمئن النفس عظيم المروءة .

وحينما تخوض النفس الإنسانية فى هذه الجنة فإنها ترى الورود المتفتحة والأزهار اليانعة التى هى الصفات الحميدة والأخلاق الربانية على هذه الأرض ، فيتبوأ منها الطالب حيث يشاء .

تلك هى الجنة التى جعلها الله فى حياة الصالحين ليتبوّءوا من جنة القرب حيث يشاءون . إنها جنة القرب من الله ـ فنعم أجر العاملين .

وهكذا تنتقل بنا كلمات القرآن من جنة إلى جنة حينما نلتقى بكلمة .. «وأقرب رحما» وهى كلمة الرحمة أو جنة الرحمة فى حياة القلوب الصالحة حيث تعيش القلوب على مدد من رحمة ربها .. وما أقرب القلوب الصالحة إلى الرحمة واللين والعطف ويقول الله سبحانه وتعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» .. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن رب العزة فيما يختص بالرحمة ـ مامعناه ـ إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة وأمسك بتسع وتسعين رحمة ، هذه الرحمة الواحدة هى الرحمة التى جعلت الوحوش تطعم صغارها والأم تعطف على وليدها ، فلو علم الكافر ماعند الله من رحمات مااستيأس من دخول الجنة .

والرحمة .. إحدى الجنات الواسعة التى نسبها الله سبحانه وتعالى إلى أسمائه الحسنى فهو الرحمن وهو الرحيم .

والرحمة فى فروعها ستر وليست فضيحة .. إنسانية وليست حيوانية .. سلام وليست حرباً خير وليست شراً .. طعام وليست مجاعة .. أمن وليست خوفاً .. تلك من أمثلة حياة الرحمة فى هذه الجنة التى جعلها الله على هذه الأرض لكى يقترب منها الإنسان .. ويكفى للإنسان أن يقترب من جنة الرحمة ـ ومن اقترب منها ولم يدخلها فكأنما دخلها .. ولذا فإن الله سبحانه وتعالى يقول : «وأقرب رحما» ويقول المنفلوطى : (لو تراحم الناس ماكان بينهم جائع ولا مسكين ولا عريان إلخ) .

وإذا كانت حياة الرحمة أو جنة الرحمة قد استهدفت القلب والفؤاد .. فإن الله سبحانه وتعالى لا يحرم أحداً من هذه الجنة على الأرض . حتى ولو كان جباراً شقياً .. ومفتاح الجنة موجود فى الأرض كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

فمن أراد الرحمة فعليه بالرحمة ومن لم يرد الرحمة فمآله إلى العذاب ـ والراحمون يرحمهم الرحمن .

تلك هى رسالات الصالحين والرسل والأنبياء وحياتهم على هذه الأرض .. يتنسمون من أريج الجنة ويلتمسون من جودها وكرمها ، وهم لا تزال أقدامهم تسعى على تراب هذه الأرض

فى حياة دنيوية مردها إلى الله تعالى .. وهكذا رأينا أن آية واحدة من آيات الله قد حملت بين طياتها جنات كثيرة عاشها سيدنا موسى عليه السلام من خلال الآية القرآنية .

«فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما»

وتستطرد آيات القرآن شارحه تأويل سيدنا الخضر لواقعة الجدار فيقول :

«وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا» .

وأما الجدار : إن هذا الجدار ليس إلا جماداً لا ينطق ولا يتحرك .. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل له وظيفة من الوظائف ـ وحينما يقوم الجماد بوظيفة ليست هى أصلاً موكولة إليه ، فإن ذلك يعبر عن فساد شامل فى هذا المجتمع ـ الذى يئس فيه الرجل الصالح من ائتمان أحد من أهل هذه القرية على حفظ الأمانة والعمل بالوصية ، وهذا الفساد يبدو واضحاً من تلك المعاملة التى استقبل بها أهل تلك المدينة كلاً من سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام .. فقد رفضوا إطعامهما أو ضيافتهما وذلك راجع إلى فساد السريرة ، والبعد عن العقيدة والنقص فى الأخلاق الحميدة التى من طابعها

الكرم والإيثار وإكرام الضيف . من أجل هذا أصبح الجدار قيمة فى عالم الحفظ وصيانة الوديعة ، حيث ارتضاه الرجل الصالح مكاناً آمناً لحفظ أمواله .

وحينما دخل سيدنا الخضر وبصحبته سيدنا موسى عليهما السلام تلك القرية تحركت طبيعة الحياة الروحية .. فى أعماق سيدنا الخضر مع خطواته فى تلك البلدة - فحينما يمر الخضر عليه السلام على بلدة بأكملها . فإن القلوب والنفوس تخاطبه .. بل يناديه الجماد .. وتناجيه المخلوقات .. حتى ليبدو وكأنه ليس هناك فارق بين الإنسان وبين المخلوقات والموجودات حتى وإن كانت فى صورة جماد لا يتحرك ولا ينطق .. فالكل يتساوى أمام الحياة الروحية الفذة التى تؤمن إيمانا تاماً أنه مامن شيء إلا ويسبح بحمد الله .. ولكن أكثر الناس لا يفقهون كيف تسبح هذه المخلوقات وتلك الخلائق ؟! .

فكان لغلامين يتيمين فى المدينة : أفضى على وجدانه الملهم بما يعانيه الخضر على ذلك الجدار العتيق .. أفضى على وجدانه الملهم بما يعانيه ذلك الجدار من جراء حمل الأمانة التى جعلته . ظاهراً وباطناً خاشعاً متصدعاً .. نتيجة لتحمله الأمانة وحفظه للوديعة .. من أجل غلامين يتيمين لأب صالح فى تلك القرية من منطق أن الأبوة الصالحة تنفع الأبناء اليتامى المستضعفين فى الأرض .

وكان تحته كنز لهما ـ فما برح الخضر عليه السلام أن تفاعلت همّته من أجل بناء ذلك الجدار ، بل ذلك الصرح العظيم الذى يمثل الحفاظ على الأمانه فى المجتمع الإنسانى .. وذلك واضح فى التعاليم القرآنية المباركة التى تستهدف ـ الغيرة الشديدة فى الحفاظ على الأمانات والعهود دون تبديد أو تفريط . وتلك هى الرسالة الحقيقية التى أرادها الله سبحانه وتعالى من أجل تدعيم الأجيال .. وفى ذلك حفظ حقيقى لكل برعم صغير ليأخذ حقه فى الإنبات والرعاية .. واليتامى الصالحون براعم جديدة تحتاج لكل صون ورعاية .. من أجل استمرار الخير وتدفق الحياة فى نقاء وصفاء .. حتى لا يشقى إنسان أو يحرم من لطائف الرحمن فلم يكن حفظ الرجل الصالح للوديعة فى ذلك الجدار إلا لاستشراء الفساد وانعدام الأمانة بين الناس .

وكان أبوهما صالحا : وإذا كان للجدار .. صرخة روحانية .. يستغيث بها من أجل إقامته ، فإن هذه الصرخة ماهى إلا أثر صالح من أنفاس العبادة الصادقة والذكر المستديم لرب العالمين من أجل رجل كتبه الله من الصالحين .. فصلاح الأب له أثره الفعال على الموجودات والكائنات ـ وهو يتعقب الأبناء فى مجال حياتهم طالما نشأوا صالحين طيبين .

ولقد عنى القرآن عناية فائقة بكل غلام يتيم .. وبكل إنسان يحيا على هذه الأرض أشبه مايكون باليتيم .. من أجل الحفاظ على كل ضعيف وكل مستضعف على هذه الأرض ....

تلك هى الرسالة الخالدة والرحمة الخالصة .. التى أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون فى الأرض وفى السماء .

إن ذلك الكنز الذى كان محفوظاً تحت ذلك الجدار إنما هو نتاج حلال وليس من كسب حرام وقد امتزجت فيه القيم المادية بالقيم الروحانية .. لأنه أثر من آثار الصالحين فى الحياة .. وتأكيد واضح . للميراث الروحى .. وهو الميراث الحقيقى الذى تتأكد حقيقته بالأخلاقيات المتمثلة فى العبادة . والتدين الحقيقى ، وفى معرفة الله سبحانه وتعالى : فالميراث الروحى .. أسمى من كل ميراث يستخلفه الرجل الصالح لذريته فى الأرض ، وذلك هو ميراث الأنبياء والرسل والصالحين على الأرض .

ومن أجل حق الميراث ، ومن أجل المال الحلال ، ومن أجل الصلاح والتقوى كانت همة سيدنا الخضر عليه السلام فى إعادة هذا الجدار أو ذلك البناء .. إن هذا العمل يشير إلى إقامة صرح الخير .. على هذه الأرض طالما كانت هناك المقومات الصادقة التى تدعم كل عمل خير وكل اتجاه حميد .

فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما: أقام سيدنا الخضر ذلك الجدار صوناً للأمانات وحفظاً للعهود ، وترك لهذين الغلامين نوراً من همته الروحية التى تعمل على مصاحبتهما فى حياتهما الدنيوية حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما .. وسوف تتحرك الهمم فى زمن يسمح لهما بأن يباشرا حياتهما ويتعقلا فى الحفاظ على كنزهما .. وذلك

تأثير روحى يعمر الأرواح من أجل يقظتها فى الموعد الحقيقى ، حينما تتفتح المدارك وتعى العقول وتقوى العزائم .

تلك أمثلة مصغرة للآثار الروحية فى الأفراد والجماعات .. من أجل النهضة الروحية والإقدام الصادق لحماية راية الله فى الأرض من خلال .. جنود الأرض .. الذين ألحقهم الله سبحانه وتعالى بمعسكر جنود السموات .

رحمة من ربك : ذلك هو العمل الحقيقى لسيدنا الخضر فى كل موقع وفى كل مكان .. إنه عمل مستمر يمثل وظيفة الرحمة الحقيقية .. فى بعث الهمة الروحية .. وإظهار الحكمة الخفية .. وإصلاح مالم يستطع العقل ولا الدهر إصلاحه .. وتلك الوظيفة هى رسالة مستخلفة فى الأرض .. لكل الذين حملوا الخلافة . التى سجدت الملائكة من أجلها خضوعاً واحتراماً وتقديراً . لمن وهبهم الله سبحانه وتعالى الحكمة والمعرفة القائمة على الأسرار الدفينة . التى وضحت معالمها من خلال ذلك الحوار العظيم الذى دار بين قطبى الخلافة سيدنا موسى فى نبوته الكبرى ، وسيدنا الخضر فى صلاحه وحكمته العظيمة .

ومافعلته عن أمرى : ومن أجل هذا يستمر سيدنا الخضر فى وظيفته وهو يعلم تماماً أنها إرادة الله سبحانه وتعالى .. فهو ليس له إرادة ولا غاية فى تحقيق مأرب أو شهوة على الأرض .. فيقول مذكراً سيدنا موسى عليه السلام بل موضحاً لأتباع الإسلام قول الله تعالى : «ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا» .

فالكلمة كلمة الله سبحانه وتعالى .. والحركة فى ظاهرها حركة فعلية آدمية ، فإن بدت فى الظاهر أنها تشير إلى إنسان بعينه .. لكنها فى الحقيقة تشير إلى الله بذاته .. وهكذا كل من يفعل الخير إنما يكون سبباً ظاهراً فى الخير بينما الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

وفى نهاية المطاف لهذه القصة الخالدة نرى أن سيدنا الخضر عليه السلام لم يُبْد إلا شذرات ضئيلة من علم الله المكنون ، وأنه أوضح إيضاحات عابرة .. حيث إن العقول لا تحتمل الحقائق المذهلة .. ولذلك اختار كلمة تأويل ولم يختر كلمة تفسير ، وهذا فى قول الله سبحانه وتعالى : «ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا» .

وفى ختام هذا الحديث ندعو الله سبحانه وتعالى أن يعطينا القدرة والاستطاعة على ممارسة العبادة والتأدب بالأدب الربانى والتأسى بالحكمة الإلاهية وندعو الله آملين أن يفرغ علينا صبراً .. وأن يلهمنا علماً نافعاً من ذلك النوع الذى يقوم عليه الصبر ، فالصبر والعلم ، كلمتان مترادفتان .. فإن تعلم الإنسان أصبح من الصابرين وإن صبر أصبح من المتعلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة ـ المنشية
ت : ٨٠٣٩٦٤